كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلمية
------

# توظيف دلالات التنكير في مدائح المتنبي لسيف الدولة وكافور (دراسة بلاغية موازنة)

إعداد

د/ محمد شاكر محمد صهوان

مدرس البلاغة والنقد

كلية اللغة العربية بإيتاي البارود جامعـــــة الأزهـــــر

( العدد الأربعون )

( الإصدار الأول ـ الجزء الخامس )

( ١٤٤٢هـ / ٢٠٢١م )

# توظيف دلالات التنكير في مدائح المتنبي لسيف الدولة وكافور
## (دراسة بلاغية موازنة)

محمد شاكر محمد صهوان.

كلية اللغة العربية بإيتاي البارود، جامعة الأزهر، إيتاي البارود، جمهورية مصر العربية

البريد الإلكتروني: mohamedsahwan.419@azhar.edu.eg

## الملخص:

اختار البحث صورة من الصور التي يأتي عليها اللفظ؛ ليعبر عن دلالات وطاقات يستدعيها السياق ويتطلبها المعنى، وهو التنكير، لتكون محل الدراسة وميدانها؛ وذلك لأن التنكير من صور اللفظ الذي يأتي في بناء الكلام استجابة لدواع بلاغية، ودلالات متنوعة، ومقاصد مختلفة لا يمكن للتعريف أن يقوم بها، وقد خصص البحث مدائح المتنبي للوقوف على طرق توظيف هذه الظاهرة وتتبع أسرار التعبير بها؛ وذلك لما عرف عن المتنبي من أسلوب فريد في اختيار مادته الكلامية، وعبقرية فذة في صياغة الكلام ، وبراعة رائعة في اختيار الألفاظ، وإدارك لجماليات المفردة وتوظيفها توظيفا سليما، بحيث تخرج منسجمة مع مقتضى المعنى، حتى أصبح له إيحاؤه الشخصي الذي ميزه عن غيره.

وقد اقتصرت الدراسة على مدائح سيف الدولة وكافور ؛ لأن الشعر الذي صدر في مدحهما من المتنبي إنما صدر عن شعور متباين ونفس مختلفة، فالمتنبي كان مكبرًا للأمير الحمداني، محببا لنفسه، معجبًا به، مفتونًا بحسن بلائه في جهاد الأعداء، وعلى النقيض مع كافور فإنه لم يكن معجبًا به ولا محبا له، بل كان يبغضه أشد البغض، ويزدريه أشد الازدراء، فهو في نظره لا يعدو إلا أن يكون

عبدا أسودا خصيا؛ ولما كان لصياغة الكلمة دور بالغ في تشخيص الحالة الشعورية التي تسيطر على المبدع؛ لهذا حاول البحث الكشف عن أثر الدافع النفسي في بناء الألفاظ وحشدها وتوظيف طاقاتها وتنوع دلالاتها في مدائح المتنبي لسيف الدولة وكافور؛ لإبراز دلالات نفسية، ومعان جمالية، وقيم فنية يمكن الوقوف عليها باستنطاق شعره الذي نسجه لكل ممدوح منهما، ومن ثم الموازنة بين توظيفه للنكرة في مدائحه لسيف الدولة وكافور؛ لمعرفة أوجه الشبه والاختلاف، وأثر العامل النفسي، ودفقات الشعور، وتباين الأحاسيس في نسج الألفاظ داخل سياقاتها المختلفة، واستخراج ما تختزنه النكرة من مقاصد كثيرة ودلالات عديدة.

**الكلمات الافتتاحية**: التنكير . مدائح . المتنبي . سيف الدولة . كافور.

# Title: Employing Indefiniteness Connotations in Al-Mutanabbi's Praise Poems for Saif Al-Dawla and Kafur (A Comparative Rhetorical Study)

**Mohamed Shaker Mohamed Sahwan.**

**Department of Rhetoric and criticism, Faculty of Arabic Language, Al-Azhar University, city Itai El–Barud, Egypt.**

**E-mail:** mohamedsahwan.419@azhar.edu.eg

## Abstract

**This research chose indefiniteness to be the subject of the study, as it is one of word images which expresses connotations and capacities that the context calls for and that the meaning requires; because indefiniteness is one of the forms of expression and part of construction of speech used for rhetorical reasons, various connotations, and different purposes that definiteness cannot express. The research chose Al-Mutanabbi's praise poems to determine the methods of employing this phenomenon and to trace the secrets of its expression; because of Al-Mutanabbi's unique style in choosing vocabulary, his inimitable genius in formulating speech, and his wonderful skill in choosing words as well as his awareness of the aesthetics of the vocabulary and its proper use, so that it comes out in harmony with the purpose of the meaning, until he was characterized by his personal inspiration that distinguished him from others.**

**The study is limited to Al-Mutanabbi's praise poems for Saif al-Dawla and Kafur; because Al-Mutanabbi's praise poems for them were articulated by Al-Mutanabbi with a different feeling and spirit. Al-Mutanabbi glorified,**

**loved and admired Prince Al-Hamdani, fascinated by his good performance in jihad against enemies. On the contrary, al-Mutanabbi was neither admirer nor a lover of Kafur Al-Ikhshidi, as he hated him intensely, and despised him greatly. Al-Mutanabbi used to see Kafur as just a black eunuch slave**

**Since wording has a great role in diagnosing the emotional state that overwhelms the creative writer; so this research tried to reveal the effect of psychological motivation in building and combining words, employing their capacities and diversifying their connotations in Al-Mutanabbi's praise poems for Saif Al-Dawla and Kafur, as well as to bring out psychological connotations, aesthetic meanings, and artistic values that can be discovered by diving into Al-Mutanabbi's poetry for Al-Hamdani and Kafur. After that the research compares Al-Mutanabbi's use of indefiniteness in his praise poems for Saif Al-Dawla and Kafur in order to know the similarities and differences, the impact of the psychological factor, the flows of feeling, and the contrast of feelings in using words within their different contexts, as well as extracting many purposes and connotations that indefiniteness has.**

**Key Words:** **Denial - Praises - Al-Mutanabbi - The sword of the state - Camphor**

## المقدمـــــــــــة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على من أرسله ربه بالبيان، وعلمه القرآن، وآتاه جوامع الكلام، وأسرار الفرقان، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان ...

وبعد،،،

فمن المعلوم أن الكلمة هي الوحدة المشكلة لبناء النظم، و لها داخل سياقاتها طاقات وجدانية كبيرة، وإيحاءات تأثيرية عجيبة، وخصائص فنية بنائية عديدة، يستطيع المبدع أن يوظفها في نتاجه الأدبي، وأن يكشف بها عن مراده، وأن يصور بها الحدث وملابساته تصويرا دقيقا، والكلمة تمثل المادة الخام التي يلتقطها الشاعر ويبنى بها صورته، وتتمثل في الطبيعة، وفي الأدوات التي يستعملها الفرد في الحرب، والسلم، وغير ذلك، ومن الطاقات التي يمكن توظيفها في الكلمة أنك تراها تعبر عن معناها بصفاتها وجرس حروفها، فيعبر بالصوت القوي عن المعنى القوي، وبالصوت الضعيف عن المعنى الضعيف، كما تجد الكلمة تأخذك إلى مرادها الدقيق عن طريق مادتها المعجمية، فليس قعد كجلس، ولا جاء كأتى...، وهكذا، فإن الكلمة تمتلك من المقومات ما يجعلها وحدة ذات دلالات مختلفة تؤدي وظائف متعددة في النسق التعبيري المتماسك مما ينتج عنه من أثر جمالي وبلاغي؛ لهذا كان اختيار الكلمة داخل البناء اللغوي من الأمور التي تحتاج إلى ذوق دقيق، و فهم صائب حتى تأتي الكلمة معبرة عن مراد صاحبها، وتكشف عن خلجات نفسه، و تنفض عن مكنوناتها الدفينة، والمبدع هو من يستطيع أن يفجر طاقات الألفاظ؛ لتصور معانيه، وتكشف عن مراده ودلالاته الشعورية والفكرية بصورة دقيقة، خصوصا وأن الشاعر لا يستطيع أن يوظف ألفاظه إلا إذا عايشها وتذوقها لتخرج معبرة عنه حاملة ملامحه الذهنية، وقد اختار البحث صورة من الصور التي يأتي عليها اللفظ؛ ليعبر عن دلالات وطاقات يستدعيها السياق ويتطلبها المعنى، وهو التنكير، لتكون محل الدراسة وميدانها؛ وذلك لأن التنكير من صور اللفظ الذي يأتي في بناء الكلام استجابة لدواع بلاغية، ودلالات متنوعة، ومقاصد مختلفة لا يمكن للتعريف أن يقوم بها، وقد خصص البحث مدائح المتنبي للوقوف على طرق

توظيف هذه الظاهرة وتتبع أسرار التعبير بها؛ وذلك لما عرف عن المتنبي من أسلوب فريد في اختيار مادته الكلامية، وعبقرية فذة في صياغة الكلام ، وبراعة رائعة في اختيار الألفاظ، وإدارك لجماليات المفردة وتوظيفها توظيفا سليما، بحيث تخرج منسجمة مع مقتضى المعنى، حتى أصبح له إيحاؤه الشخصي الذي ميزه عن غيره.

وقد اقتصرت الدراسة على مدائح سيف الدولة وكافور دون غيرهما؛ لأن الشعر الذي صدر في مدحهما من المتنبي إنما صدر عن شعور متباين ونفس مختلفة، فالمتنبي كان مكبرًا للأمير الحمداني، محببا لنفسه، معجبًا به، مفتونًا بحسن بلائه في جهاد الأعداء، وعلى النقيض مع كافور فإنه لم يكن معجبًا به ولا محبا له، بل كان يبغضه أشد البغض، ويزدريه أشد الازدراء، فهو في نظره لا يعدو أن يكون عبدا أسودا خصيا؛ ولما كان لصياغة الكلمة دور بالغ في تشخيص الحالة الشعورية التي تسيطر على المبدع؛ لهذا حاول البحث الكشف عن أثر الدافع النفسي في بناء الألفاظ وحشدها وتوظيف طاقاتها وتنوع دلالاتها في مدائح المتنبي لسيف الدولة وكافور؛ لإبراز دلالات نفسية، ومعان جمالية، وقيم فنية يمكن الوقوف عليها باستنطاق شعره الذي نسجه لكل ممدوح منهما، ومن ثم الموازنة بين توظيفه للنكرة في مدائحه لسيف الدولة وكافور؛ لمعرفة أوجه الشبه والاختلاف، وأثر العامل النفسي، ودفقات الشعور، وتباين الأحاسيس في نسج الألفاظ داخل سياقاتها المختلفة، واستخراج ما تختزنه النكرة من مقاصد كثيرة ودلالات عديدة، والوقوف على طرق توظيفها؛ للكشف عن الظلال النفسية للمبدع تجاه ممدوحه، ومطابقتها لما يدور في العقل وما يملأ الوجدان، وإسهامها في تجسيم الحالة الشعورية، وقد اقتصر البحث على دلالتي التعظيم والعموم؛ لكثرتهما في شعر المتنبي، وبراعته في توظيفهما، كما أن التعظيم والعموم من الأغراض التي يركن إليها الشعراء كثيرا في مدائحهم، بالإضافة إلى أن باقي الأغراض الأخرى التي تدل عليها النكرة ذات رحم وقرابة بغرضي التعظيم، والعموم .

وقد اقتضت طبيعة البحث أن يكون في مقدمة، وتمهيد، ومبحثين، وخاتمة.

أما التمهيد: فقد تناولت فيه التنكير ومقتضيات السياق

أما المقدمة: فقد ألمحت فيها إلى طبيعة الدراسة وأهميتها، وأسباب اختياري هذا الموضوع.

**المبحث الأول: دلالة التنكير على التعظيم بين مدح سيف الدولة وكافور.**

**وفيه خمسة مطالب:**

**المطلب الأول: دلالة التنكير على التعظيم بين مدائح سيف الدولة وكافور في شعر الطبيعة العلوية.**

**المطلب الثاني: دلالة التنكير على التعظيم بين مدائح سيف الدولة وكافور في ذكر الأجرام السماوية.**

**المطلب الثالث: دلالة التنكير على التعظيم بين مدائح سيف الدولة وكافور في ذكر الطبيعة المائية الأرضية.**

**المطلب الرابع: دلالة التنكير على التعظيم بين مدائح سيف الدولة وكافور في سياق المدح بقوة الجيش وكثرة العتاد.**

**المطلب الخامس: دلالة التنكير على التعظيم بين مدائح سيف الدولة وكافور في سياق الحديث عن بعض طباعهما وصفاتهما الذاتية.**

**وأما المبحث الثاني: فقد تناولت فيه: دلالة التنكير على العموم بين مدح سيف الدولة وكافور، وفيه مطلبان:**

**المطلب الأول: النكرة الدالة على العموم في سياق الحديث عن الشجاعة وأدوات الحرب .**

**المطلب الثاني: النكرة الدالة على العموم في سياق الحديث عن الكرم بين المتنبي وكافور.**

**ثم شفعت بحثي بخاتمة رصدت فيها أهم ما توصلت إليه من نتائج وتوصيات، وتلاها ثبت بالمصادر والمراجع.**

**وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلِّ اللهم وسلِّم وبارك على أشرف الخلق وأسعدهم سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ، وعلى آله وأصحابه أجمعين.**

**الدكتور**

**محمد شاكر محمد صهوان**

**مدرس البلاغة والنقد في كلية اللغة العربية بإيتاي البارود**

**٢٠٢١م**

## التمهيد

## التنكير ومقتضيات السياق

يعد التنكير من الظواهر التي تخضع لمقتضيات السياق؛ إذ إن له مواطن لا يمكن للمعرفة أن تؤديها "فالمقام الذي يناسبه تنكير المسند إليه أو المسند يباين المقام الذي يناسبه التعريف"(١) وقد حرص البلاغيون على بيان هذه الحقيقة حيث يوضح الإمام عبد القاهر أن النكرة قد يستدعيها السياق حتى تضفي بدلالاتها حسنا وجمالا على المعنى وهذا الحسن لا تجده مع المعرفة وفي ذلك يقول الشيخ: " إذا أنتَ راجعتَ نفسَك وأذكيتَ حسَّك، وجدتَ لهذا التنكيرِ ... حُسْناً وروعةً ولطفَ موقعٍ لا يقادره قدرُه، وتَجِدُكَ تَعْدَمُ ذلكَ مع التعريفِ، وتخرجُ عن الأريحيةِ والأُنْس إلى خلافِهما"(٢)، وليس الأمر موقوفا على الحسن والجمال والروعة فحسب بل إنه يتعدى ذلك إلى تحصيل الفائدة حيث تجد مع التعبير بالنكرة حصول الفائدة فإذا استبدلتها بالمعرفة ضاعت تلك الفائدة وقد صرح بذلك الإمام العلوي بقوله:" قد يجيء التنكير لفائدة جزلة يقصر عن إفادتها العلم، ولا يبلغ كنهها رسم القلم"(٣).

كما حرص البلاغيون على تفنيد من يدعون أن التعريف أقدر من التنكير في بيان المعاني مطلقا، وكشفوا في ردهم عن طاقات متعددة للتنكير يستدعيها السياق ويلح عليها ولا يستقييم إلا بها؛ فيقول الإمام الزملكاني: «وقد يظن ظان أنّ المعرفة أجلى فهى من النكرة أولى، ويخفى عليه أنّ الإبهام فى مواطن خليق وأنّ سلوك الإيضاح ليس

(١) الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني (٧٣٩ هـ): ١/ ٤٢، دراسة وتحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل – بيروت، الطبعة الثالثة.

(٢) دلائل الإعجاز في علم المعاني الشيخ عبد القاهر الجرجاني (المتوفى: ٤٧١هـ): ٢٨٨ تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م

(٣)الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة العلويّ (المتوفى: ٧٤٥هـ): ٢/ ٨ المكتبة العنصرية – بيروت الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ

بسلوك للطريق خصوصا فى موارد الوعد والوعيد والمدح والذم اللذين من شأنهما التشييد. وعلة ذلك أن مطامح الفكر متعددة المصادر بتعدد الموارد، والنكرة متكثرة الأشخاص يتقاذف الذهن من مطالعها إلى مغاربها وينظرها بالبصيرة من منسمها إلى غاربها فيحصل فى النفس لها فخامة وتكتسى منها وسامة. وهذا فيما ليس لمفرده مقدار محصور بخلاف المعرفة فإنه لواحد بعينه يثبت الذهن عنده ويسكن إليه»[(١)]، وتأسيسا على ما سبق فإن المبدع يؤثر التنكير على التعريف متى وجد له في السياق حاجة، وفي المقام مطلبا، وإلا عدل عنه لغيره، وهذا الأمر حدا بالإمام عبد القاهر أن يكشف عن أن الشيء المستحسن لا يدوم حسنه إذا تغير موضعه؛ فيقول: " ليسَ إذا راقَكَ التنكيرُ في "سؤددٍ" ... وفي "دهرٌ" ... فإنه يَجبُ أنْ يروقَكَ أبداً وفي كلَّ شيء ... بل ليسَ مِنْ فضلٍ ومزيةٍ إلاَّ بحسَبِ الموضع، وبحَسبِ المعنى الذي تُريدُ والغرض الذي تؤُمُّ."[(٢)] وهذا نص صريح في أن المعول عليه في الحسن إنما مرجعه المعنى المراد والغرض المطلوب، "فليس إذا راق التنكير فى موضع يروق فى كل موضع، بل ذاك على حسب الانتظام، ومأخذ السياق يفوق و يزداد إعجابا و حسنا"[(٣)].

وهذه الأمور وغيرها تبين أن هذه الدراسة وإن كانت في اللفظة النكرة إلا أنها تنظر إلى اللفظة من خلال مقامات الكلام وسياقاته التي تختلف من موضع لآخر، والنظر في التركيب وتعلق الألفاظ ببعضها.

(١) البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن. لعبد الواحد الزملكاني : ١٣٦تحقيق. الدكتور أحمد مطلوب والدكتورة خديجة الحديثى. بغداد .

(٢) دلائل الإعجاز : ٨٧.

(٣) الطراز: ١٢١/٢

## المبحث الأول: دلالة التنكير على التعظيم بين مدح سيف الدولة وكافور.

**وفيه خمسة مطالب:**

**المطلب الأول: دلالة التنكير على التعظيم بين مدائح سيف الدولة وكافور في شعر الطبيعة العلوية.**

**المطلب الثاني: دلالة التنكير على التعظيم بين مدائح سيف الدولة وكافور في ذكر الأجرام السماوية .**

**المطلب الثالث: دلالة التنكير على التعظيم بين مدائح سيف الدولة وكافور في ذكر الطبيعة المائية الأرضية .**

**المطلب الرابع: دلالة التنكير على التعظيم بين مدائح سيف الدولة وكافور في سياق المدح بقوة الجيش وكثرة العتاد.**

**المطلب الخامس: دلالة التنكير على التعظيم بين مدائح سيف الدولة وكافور في سياق الحديث عن بعض طباعهما وصفاتهما الذاتية.**

## المطلب الأول

## دلالة التنكير على التعظيم بين مدائح سيف الدولة وكافور في شعر الطبيعة العلوية.

من المعلوم أن التنكير يدل على " كون الشيء مجهولا ومنكورا، وهذا معنى شامل وعميق صالح لأن يتولد منه معاني كثيرة، وذلك إذا أجراه في التعبير بصير بأحوال الكلمات خبير بسياسة التراكيب" (١) ، ويعد التعظيم والتفخيم من أبرز تلك المعاني البلاغية التي يستطيع الشاعر الفذ أن يولدها من رحم اللفظة النكرة، وقد ذكر الإمام الزركشي أن " أكثر ما يرد للتفخيم والتعظيم يكون في النكرات، وكأن التنكير حينئذ علم عليه"(٢) ولعل ما تتضمنه النكرة من إبهام وغموض هو السبب الرئيس وراء دلالتها على التعظيم والتفخيم، فالإبهام يجعل المتلقي يذهب بالمعاني كل مذهب ويعمل خياله وفكره ويسبح في فضاءات شاسعة، وقد استعان المتنبي بالطبيعة في الكشف عن هذا الجانب فاتخذ منها منهلا خصبا يستقي من خلاله صوره وخيالاته، ويسكب فيه روائع شعره، وسيحاول البحث الوقوف على بعض جوانب توظيف الطبيعة من خلال استعمال اللفظة النكرة الدالة على التعظيم والتفخيم في مدائح سيف الدولة وكافور كاشفا عن المفارقات في هذا التوظيف في شعر سيف الدولة وكافور.

أولا: دلالة التنكير على التعظيم بين مدائح سيف الدولة وكافور من خلال الطبيعة المائية العلوية.

(١) خصائص التراكيب، د/ محمد أبو موسى: ٢١٤، مكتبة وهبة، الطبعة السابعة، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م .

(٢) البرهان في علوم القرآن، محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي أبو عبد الله (المتوفى:٧٩٤ هـ): ٣/ ١٥٥، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، ١٣٩١هـ ، بيروت.

**١. مدح سيف الدولة:**

**أحب المتنبي سيف الدولة وأخلص له إخلاصا شديدًا تجلى بوضوح في مدائحه التي أنشدها له؛ فكانت تصدر عن إعجاب ملأ قلب الشاعر، وكان لهذا الحب صداه في كل لفظة نطق بها، فعمد إلى تعظيمه وتمجيده، بل امتد ذلك إلى تمجيد كل ما تعلق به، واستخدم في ذلك طاقات اللغة المختلفة بما فيها التنكير، وأخرج هذا المدح في صور مختلفة من هذه الصور أنه دمج المدح مع الطبيعة، فمدح سيفَ الدوله متخذا من الطبيعة ومظاهرها المختلفة قالبا لمدائحه، ومعادلا فنيا للواقع الموضوعي الذي يعيشه أو يستشعره بعاطفته.**

**وقد وظف المتنبي الطبيعة المائية سواء أكانت الطبيعة العلوية المتمثلة في السحاب ولوازمه، أم الطبيعة الأرضية المتمثلة في الأنهار والبحار وما يتبعهما، في مدائحه لسيف الدولة.**

**أولا: الطبيعة المائية العلوية في مدائح السيف الدولة:**

**يقصد بالطبيعة المائية العلوية السحاب والمطر وما يتبعهما، وقد ورد اللفظ النكرة المتعلق بتلك الطبيعة في صوره التي نسجها لسيف الدولة دالا على التعظيم في مواطن كثيرة، من ذلك قوله[١] :**

**وَأَحسَنُ مِن ماءِ الشَبيبَةِ كُلِّهِ حَيا بارِقٍ في فازَةٍ أَنا شائِمُه**
**عَلَيها رِياضٌ لَم تَحُكها سَحابَةٌ وَأَغصانُ دَوحٍ لَم تَغَنَّ حَمائِمُه**

**جعل المتنبي جود ممدوحه هنا أحسن من ماء الشباب ونضارته، وقد استعمل من الصيغ ما يلبي حاجته ويظهر مراده، فصدر البيت بكلمة (أحسن) الدالة على الحسن من طرق متعددة، من ذلك لفظها الدال على الحسن، وبناؤها على أفعل التفضيل الذي زاد من دلالتها على الحسن؛ حيث جعل ممدوحه الأفضل بين من يتصفون بهذه الصفة،**

(١) ديوان المتنبي: ٢٥٨، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م .

ومجيؤها نكرة بلغ بالحسن غايته، وبالجمال أقصاه، وكأنه لا حسن بعد هذا الحسن، وأبو الطيب هنا ناسب بين المفضل والمفضل عليه لفظا ومعنى، فالطرفان يجمع بينهما الماء، وذلك في ( ماء الشبيبة) و ( حيا بارق )، ثم إن كليهما قد جمعا شيئا من الحسن، ويدل على ذلك مجيء أفعل التفضيل مجردا من (أل) والإضافة، ومعلوم أنه "لا يخلو أفعل التفضيل المجرد من (أل) والإضافة والمقرون بـ (من) من مشاركة المفضل في المعنى غالبًا ولو تقديرًا، فإذا قيل: سيبويه أنحى من الكسائي، فالكسائي مشارك لسيبويه في النحو ، وإن كان سيبويه قد زاد عليه في النحو"(١)، وبهذا يكون الشاعر قد أكد الحسن للطرفين؛ الطرف الأول: رونق الشباب ونضارته، وهي أبهى وأجمل حالات الإنسان، الطرف الثاني: سيف الدولة، فهو المفضل، إلا أن حسنه فاق حسن الشباب ورونقه، حتى بلغ مبلغا عظيما لا يبارى.

ويستمر الشاعر في بيان هذا القدر فيأتى بـ(حيا) و(بارق)، و(فازَةٍ) نكرات، استجابة لدواع بلاغية ونفسية لدى الشاعر، فهو يريد تعظيم الممدوح وتفخيمه واستعظام شأنه، فمال إلى استعمال النكرة التي جعلت اللفظ يؤدي مراده كما ثار في قلبه ووقع في نفسه، فحيا البرق، أي: المطر يعظم ويكثر بعظم السحاب، فكلما كان السحاب عظيما بارقا كلما كان رجاء عطائه أكبر، وشاعرنا جعل السحاب البارق قد بلغ من العظمة مكانا لا يوقف عند حده ولا يعرف نهاية لقدره، فأحدث في النفس فخامة، وكسا المعنى وسامة.

وكما استعظم المتنبي سيف الدولة استعظم –أيضا– تلك الخيمة التي ضربت له وأعلا من شأنها، فأتى بها في صورة النكرة (فازَةٍ)؛ ليضفي عليها إبهاما يجعل العقل يحلق في ميادين الوصف والعظمة، وهذا من ذكاء الشاعر؛ حيث جعل اللفظ يقف بالسامع على معان يقصر عن صنيعها بيان الأقلام، فبين أن الخيمة أخذت منزلتها من منزلة من

(١) همع الهوامع في شرح جمع الجوامع: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ): ٩٨/٣، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة التوفيقية – مصر.

حل بها؛ لأن العظيم إذا حل بمكان خلع عليه من نعته وقدره، كما أن ما نثره الشاعر من عظمة على بناء تلك الخيمة يدل على عظمة بانيها ومالكها.

ويدمج الشاعر بين الطبيعة السماوية والطبيعة الأرضية؛ حيث الرياض، والأغصان...، فيستعمل كلمات: (رياض، وأغصان، ودوح) التي جاءت نكرات على صيغ الجمع؛ لتتناغم مع ما نثره الشاعر من عظمة وبهاء على خيمة الممدوح، فالرياض المرسومة على الخيمة رياض عظيمة، وكذا أغصان دوحها، وإنما أراد ذلك كله لبانيها؛ إمعانا في وصف هيبته، وإيمانا منه بجلال مكانته.

وتظل ظواهر الطبيعة المائية أداة يوظفها المتنبي للكشف عن خصال سيف الدولة في مدائحه، مسخرا لها قالبا من مفردات أتت على صورة النكرة؛ لتتسع بدلالتها المبهمة لفيض العطاء ومعاني الخير والنماء فيقول من الكامل [1]:

أَنَا مِنكَ بَينَ فَضائِلٍ وَمَكارِمٍ    وَمِنِ اِرتِياحِكَ في غَمامٍ دائِمِ

يمدح المتنبي سيف الدولة بأنه ملك الأخلاق الشريفة، والأفعال الكريمة حتى أصبح أمر الشاعر منحصرا بين شرف أخلاقه وكريم أفعاله، ولشدة إيمان المتنبي بثبوت هذه الصفات لدى سيف الدولة تجده يؤكد معانيه بأدوات فنية متعددة، منها توظف الألفاظ بحيث يجعلها ترسم للمتلقي حالة شعورية، وتختزن طاقات وجدانية كبيرة ترمي إلى عظمة الممدوح ومكانته العالية، ويظهر ذلك في مجيء لفظتي( فَضائِلٍ، وَمَكارِمٍ) نكرتين على صيغة الجمع؛ للدلالة على عظم هذه الفضائل والمكارم وكثرتهما وتهويل قدرهما؛ حتى لا يقف العادون على عددهما، ولا يحيط أحد بعظمتهما ولا مقدارهما، كما أن عطف المكارم على الفضائل بالواو الدالة على المغايرة يشير إلى أن مقدار العظمة المستفادة من التنكير في كلا اللفظتين يختلف كل منهما عن الآخر ، فسيف الدولة قد جمع بين بابين عظيمين من أبواب المديح، هما: الفضائل الكبار، والمكارم العظام.

(١) الديوان: ٢٨٨.

ولما كان دأب المتنبي الإلحاح على معانيه وتتبع صفات ممدوحيه فقد أتى بصورة تؤكد ما قصده من صفات ومعانٍ؛ فتراه يقول:

..... وَمِنِ اِرتِياحِكَ في غَمامٍ دائِمِ

وهنا يصور الشعور القوي الذي ترسخ في نفسه تجاه ممدوحه؛ مما حدا به إلى توظيف مفرداته توظيفا دقيقا؛ لترسم معانيه وتبين عن مراده، وتكشف بدلالاتها عن الحالة الشعورية التي تملكته، ويظهر ذلك في التعبير بكلمة( غمام ) التي جاءت في صورة النكرة ؛ للدلالة على أنه غمام بلغ قدرا عظيما لا منتهى له، وقد ذهب أغلب شراح الديوان[١] إلى أن الغمام هنا يشير إلى المطر الغزير ، فيكون مراد المتنبي أنه حل من جود سيف الدولة في مطر غزير دائم ، ولكن هذا المعنى لا يتكامل مع تعبير المتنبي واختياره لألفاظه، ولو أنه قال: (ومن كرمك في سحاب ) لكن ما ذهب إليه الشراح وافيا، لكن ما عبر به المتنبي يحمل دلالات ومعانى تحتاج إلى مراجعة وتدبر، وأول ما في ذلك تعبيره بلفظة ( ارتياح) تلك التي تشير إلى النَّدى والمعروف والعطية وسعة الخُلُق، كما أنها تحمل معنى وِجْدَانُك الفَرْجَة بعد الكُرْبَة، وتدل على السرور والفَرَحُ[٢]، ثم تأمل التعبير بالغمام دون السحاب أو المطر، فالغمام فيه معنى التغطية والستر، وسمي غماماً؛ لأنه يَغُمُّ السماء أي يسترها[٣]، وقد استعمله القرآن للدلالة على الستر من أشعة الشمس الحارقة لا السحاب المطير، يقول ـ تعالى ـ : (وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ) (سورة: البقرة من الآية: ٥٧) أي: تسترهم من أشعة الشمس وتظلهم وهم يسيرون في الصحراء، وبهذا فإن معنى الغمام ليس السحاب الممطر ، وإنما السحاب الذي يستظل به، وهذه من

(١) يراجع شرح ديوان المتنبي للواحدي ٣/ ١١٨٥، ضبطه وشرحه، د ياسين الأيوبي، د قصي الحسيني، دار الرائد العربي،بيروت لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ ، ١٩٩٩م .

(٢) لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري مادة ( روح). : دار صادر – بيروت الطبعة الأولى.

(٣) لسان العرب: مادة (غ م م).

الدلالات التي لا تحفى على المتنبي ، وبهذا فإن أبا الطيب لم يقصد مجرد جعل سيف الدولة كالمطر الذي يمنح ماءه حينا من الدهر ثم ينقطع وكأنه لم يكن فحسب، وإنما قصد من تعبيره بالغمام أن عطاءات ممدوحه وأفعاله بلغت مبلغا عظيما لا ينقطع حتى أظلت المتنبي وعمته وصارت له وعاء ساترا دائم الوجود، أحدث لديه السرور والفرح، وكان سببا في تفريج ما ألم به من كُرَب، وبهذا تجد المتنبي يتخير ألفاظا تتناسب دلالاتها مع المكانة التي استشعرها في نفسه لسيف الدولة، ثم تجده يصوغها في صورة تجعل من ألفاظه مصدر إشعاع لطاقات غزيرة ومعاني وفيرة ترسم وتجسم حالته الشعورية تجاه سيف الدولة.

ويستمر أبو الطيب في دمجه الطبيعة في مدح سيف الدولة، ليحول من خصائص بعض ظواهر الطبيعة إلى البشر، فيقول [1]:

لِعَيني كُلَّ يَومٍ مِنكَ حَظٌّ ... تَحَيَّرُ مِنهُ في أَمرٍ عُجابِ

حِمالَةُ ذا الحُسامِ عَلى حُسامٍ ... وَمَوقِعُ ذا السَحابِ عَلى سَحابِ

تَجِفُّ الأَرضُ مِن هَذا الرَبابِ ... وَيَخلُقُ ما كَساها مِن ثِيابِ

وَما يَنفَكُّ مِنكَ الدَهرُ رَطبًا ... وَلا يَنفَكُّ غَيثُكَ في انسِكابِ

فيقول: إنه في كل يوم يرى من سيف الدولة أمرا عجيبا، وقد أتى بـ(حظٌّ، وأمر) على صورة النكرة؛ ليدل على أن حظه حظ عظيم جليل، بلغ مبلغا كبيرا حتى صار أمرا غاية في العجب؛ فعجزت الألسن عن وصفه، ولم يتمكن عقل من الإحاطة بمكنونه؛ لذلك وصف هذا الأمر بـ(عجاب) دون (عجيب)؛ ليتناسب مع قصده المبالغة في هذا الوصف، فالعدول عن (فعيل) إلى (فعال) يكون من أجل المبالغة؛ لأنَّ (فعال) أشد مبالغة في

(١) الديوان: ٢٦٩.

النعت[1]؛ لهذا عندما يفسر المتنبي هذا الأمر العجيب فإنه يلزمه أن يصيغه في صورة فيها مبالغة وتفخيم، وهذا ما سنلاحظه في الأبيات المفسرة لهذا الأمر العجيب، والتي يقول فيها[2] :

حِمالَةُ ذا الحُسامِ عَلى حُسامٍ وَمَوقِعُ ذا السَحابِ عَلى سَحابِ

فالأمر العجيب هو أنه يرى سيفا يحمل سيفا، وسحابا يمطر على سحاب، ولما كان الأمر الذي تقع عيناه عليه من العجائب، فقد جاء الأمر مصاغا في صورة تتناسب مع كونه عجابا، ويظهر ذلك جليا في نعت سيف الدولة بـ( حسام، و سحاب) فحسام الثانية استعارة تصريحية جعلت من سيف الدولة سيفا قاطعا حاسما، والاستعارة بذاتها تحمل نوعا من التعظيم؛ إذ إنها تستل من السيف صفاته وتنثرها على سيف الدولة حتى جعلت منه فردا من أفراد السيوف، ثم يأتي اللفظ بمعناه ومبناه ليضفي هالة عظيمة من الفخامة على هذا الممدوح، فالحسام هو السيف القاطع، وأتى نكرة؛ ليدل على أنه بلغ مبلغا كبيرا في صفاته، وتأمل ما دأب عليه المتنبي من تتبع لمعانيه وإلحاحه عليها حتى ينسج منها لممدوحه ثوبا من العظمة تجعله يفوق مضرب المثل، فإذا كان الحسام هو مضرب المثل في القطع والحزم ...، فإن سيف الدولة فاقه وتخطاه حتى صار أصلا في بابه والسيف عالة عليه، وصار الفخار للسيف حينما حمله سيف الدولة ، ولاحظ إصرار المتنبي على تكرار لفظ (سيف) معرفا مرة، ومنكرا أخرى؛ ليضع أمام سامعيه موازنة بين السيف (آلة الحرب)، وممدوحه (سيف الدولة)، إلا أنه رجح جانب سيف الدولة، فأتى بالسيف الذي هو آلة القطع معرفا بـ(أل)؛ ليجعل قدره معلوما، أما في جانب ممدوحه استعمل كلمة (سيف) نكرة ؛ ليزيد في قدره عظمة، وفي شأنه علوا، ومن الملاحظ أن المتنبي في

(١) يراجع النهاية في غريب الحديث والأثر، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري: ٤/ ٧٨١، تح : طاهر أحمد الزاوى – محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية – بيروت ، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م

(٢) الديوان: ٢٩٦ .

إلحاحه على إثبات قدر ممدوحه يؤكد على معاني المدح، ويقلبها في صور متعددة وهذا يجعله يركن إلى استعمال الصور الجزئية، التي تمتد معه لامتداد نفسه وتصاعد المعاني التي تتوهج في صدره، فتحدو به إلى استعمال الصور الممتدة، من أجل تشكيل صورة متكاملة لممدوحه؛ لذا جاء في الشطر الثاني بصورة جديدة فيقول: وَمَوقِعُ ذا السَحابِ عَلى سَحابِ

وقد ذكر المتنبي هنا السحاب دون الغمام المذكور في النموذج السابق؛ لأنه يؤكد على فضل الكرم والعطاء الذي يلمحه في المطر، والسحاب يأتي في الأغلب الأعم مع المطر، وهذه الصورة تتشابك مع التي قبلها وتسير على منوالها؛ حيث الاستعارة التصريحية التي نثرت على الممدوح صفات الكرم، ثم تكرار اللفظ؛ ليقيم به موازنة بين سحاب السماء الذي هو مضرب المثل في العطاء والكرم، وبين سيف الدولة الذي جعله فردا من أفراد سحب السماء لما لاحظه فيه من كثرة العطاء، إلا أنه يوظف التنكير؛ ليعطي به بهاء وعظمة على الممدوح ، ويرجح به كفته في تلك الموازنة على نحو ما مر في الشطر الأول، وفي ترجيح جانب سيف الدولة دلالة على قصد المتنبي على أنه أراد أن النفع المرجو من سيف الدولة أعم عنده وأرجى من نفع السحاب الذي هو معادل للحياة عند العرب، خصوصا في البيئة الصحراوية؛ إذ به تقوم الحياة وبانعدامه تنعدام الحياة، ولعل هذا ضرب من المبالغة التي قصدها المتنبي؛ لهذا تجده لا يكل ولا يمل من تتبع معانيه، حتى يشعرك بأنها حقائق ومسلمات، وتستشعر ذلك في قوله[1]:

تَجِفُّ الأَرضُ مِن هَذا الرَبابِ وَيَخلُقُ ما كَساها مِن ثِيابِ
وَما يَنفَكُّ مِنكَ الدَهرُ رَطبًا وَلا يَنفَكُّ غَيثُكَ في انسِكابِ

فهذه هي الأدلة التي ساقها على صحة دعواه، فإذا كان الرباب الذي هو ماء المطر لا بد أن ينقطع انهطاله ثم ما يلبث إلا أن يجف ويذهب معه كل ما صحبه من نفع، فإن نفع سيف الدولة يظل موجودا؛ فيكون سببا في طيب عيش أهل الدهر ، وكأن

(١) الديوان: ٢٩٦.

غيثه لا ينقطع أبدا، وتأمل لفظتي( رطبا)، و( انسكاب) تجد أنهما بلغا مقدارا كبيرا في بابهما، تستشعره في إسناد (رطبا) للدهر على سبيل المجاز العقلي وعلاقته الزمنية، فالحق أن من يستشعر هذا الأمر هم أهل الدهر ، لكن لعظمة وجلال تلك الرطوبة فقد شملت أهل الدهر والدهر معهم حتى صاروا لا يستشعرون ضيقا ولا قسوة لدهرهم ولا حياتهم، فأي لين يسع كل ما ذكره المتنبي إلا لين بلغ في العظمة مبلغا عظيما .

وقد وظف المتنبي النكرة في سياق وصف جيش سيف الدولة ليظهر عظمته وقوته، مستعينا بألفاظ الطبيعة التي أبدع في توظيفها حتى فجر الطاقات التأثيرية المنبعثة منها؛ فيقول [1]:

سَحَابٌ مِنَ العِقْبَانِ تَزحَفُ تَحْتَهَا ... سَحَاب إذا اسْتَقَتْ سَقَتَهَا صَوَارِمُهْ

جعل المتنبي طيور العقبان التي ترافق جيش الممدوح سحبا، وجعل الجيش- أيضا - سحبا، إلا أنه جعل السحاب الأسفل الذي هو الجيش يسقي الأعلى خلاف المألوف والمعروف، وكأنه يشير إلى أن أفعال سيف الدولة وجيشه ليست كأفعال غيره، وقد صور هذا الأمر في لوحة بديعة مبتكرة تحكى في طياتها عبقرية الشاعر وروعة بيانه، وتكشف عن مشاعره وأفكاره، وترسل الخوف في نفوس الأعداء حينما يرون سحابا فوقه سحاب يملأ الأرض والسماء في مشهد عجيب، وقد صاغها صياغة فنية، معبرة عن أحاسيسه، فجاء بلفظة (سحاب) نكرة وجعلها طرفا الصورة؛ ليضفي على الصورة جانبا من العظمة والمهابة، فهذه العقبان تسير فوق الجيش كالسحاب المتراكم الذي غطى السماء لعظمته وكثرته، وهذا المسير فيه دلالة على تعود هذه العقبان على هذا المشهد لما اعتادته من توفير الطعام الناتج عن كثرة ما يحدثه هذا الجيش بأعدائه وما يوقعه من قتلى، وفي التعبير عن العقبان بـ( سحاب ) بصيغة النكرة ما يدل على أن الجيش يوقع عددا كبيرا من القتلى في صفوف أعدائه تكفي لإطعام عدد كبير من الطيور الجارحة، هذا الأمر جعل العقبان تجتمع بهذه الصورة الضخمة فوق الجيش، ثم يأتي للجانب الآخر

(١) الديوان: ٢٥٩.

من الصورة وهو قوله: ( تزحف تحت سحاب) فجعل الجيش سحابا يدفع بعضه بعضا حتى يخيل للرائي أنه يزحف، وذلك على سبيل الاستعارة المكنية الدالة على عظمة الجيش وضخامته وكثرة رجاله، وقيد الشاعر السحاب الأول بقوله: (من العقبان ) ، وأطلق الثاني؛ لأن المقصود به جيش سيف الدولة وهو المقصود بالمدح، وفي إطلاقه دعوة للمخاطب لإطلاق العنان كي يرى ما في هذه الصورة من العلو والعظمة والكثرة، بل و من السخاء وكثرة العطاء ما لا يوقف له عند حد ولا يعرف له نهاية؛ لهذا فقد قلب المألوف وجعل السحب العليا ( العقبان) تطلب السقيا من السحب السفلي ( الجيش ) فتستجيب لطلبها بما تحصده من نفوس الأعداء وما تريقه من دمائهم، ولما جعل الجيش كالسحاب ناسب ذلك طلب السقيا دون طلب المطعم.

وقد وظف المتنبي السحاب –أيضا– في بيان أوصاف خيل الممدوح؛ ليرسم لوحة فنية متداخلة، جمع لها أدوات فنية بديعة، وظفها توظيفا عجيبا؛ فيقول[1]:

سَحَائِبُ يُمْطِرْنَ الحديدَ عَلَيْهِمُ ... فَكُلُّ مَكانٍ بالسيوفِ غَسِيلُ

فالمتنبي هنا يمدح سيف الدولة بقوة جيشه، ويصف ما تضمنه هذا الجيش من خيل، وقد ذكر المتنبي هذا البيت بعد أن ذكر جانبا من أوصاف الخيل التي بدأها بقوله [2] :

وَخَيلٍ بَراها الرَّكضُ فِي كُلِّ بَلدَةٍ..... إِذا عَرَّسَت فِيها فَلَيسَ تَقيلُ

وبعد أن ذكر الخيل وأتى ببعض أوصافها، ترك الكلام واستأنف كلاما آخر أبرز المتنبي فيه اهتماما بهذا الجزء المهم من المعنى، فأتى به على القطع والاستئناف، حاذفا المبتدأ؛ ليشعرك برغبته في سرعة الوصول إلى هذا الخبر المهم؛ لهذا جاءت الصياغة كاشفة عن هذه الأهمية ، ويظهر ذلك جليا في توظيفه لكلمة (سحائب) التي فتحت للشاعر بابا يلج منه لتشييد صرح من العظمة والقوة لممدوحه؛ حيث استعملها على سبيل الاستعارة التصريحية؛ ليشبه الخيل بالسحاب، وأتى بها جمع تكثير للدلالة على

(١) الديوان: ٣٥٧.

(٢) الديوان: ٣٥٦

الكثرة، وصاغها نكرة للدلالة على الكثرة والتعظيم ، فتلك الخيل تغطي الأرض كما يغطي السحاب السماء، كما أن فرسان الخيل يرسلون وابل أسلحتهم على عدوهم فتعمهم كما ترسل تلك السحائب وابلها على أهل الأرض حتى يعمهم، ولعله –أيضا– أراد أن يشعرك بوميض تلك الأسلحة وهي تتهاوى على الأعداء مصحوبة بصهيل الخيل وصياح الفرسان، فاستحضر السحاب ببرقها ورعدها ليشعرك بتلك المعمعة التي طالما شعر بها المتنبي في صدره، وخفايا نفسه.

والعجيب هنا أن الشاعر اختار لتلك الخيل المغيرة مشبها به يضرب به المثل في العطاء والنماء والخير، وهي السحاب، ولعل هذا من المعاني المتباعدة، إلا أن الشاعر استطاع أن يجمع بين الطرفين ويؤلف بينهما في أحسن ما يكون الائتلاف؛ لأنه أراد أن يشعرك بأن ممدوحه لم يغز لخراب أو تدمير، وإنما غزواته وحروبه يرجى منها الخير والنفع وإخماد نيران الشر ، ويدل على ذلك البيت السابق الذي يقول فيه[1]:

فَمَا شَعَروا حَتَّى رَأَوْها مُغِيرةً ... قِبَاحَاً وَأَمَّا خَلْقُها فَجَمِيلُ

أي أن الروم لم يشعروا بتلك الخيل حتى رأوها قاصدة إليهم، فكانت في أعينهم قباحًا؛ لعلمهم ماذا ستفعل بهم، لكن في حقيقتها جميلة الأخلاق، متناهية الحسن والجمال، ثم يسوق المتنبي أدلة على هذا الحسن الذي لمحه في الخيل بتلك الاستعارة البديعة في قوله: (سحائب)، وقوله:( يُمْطِرْنَ) يتناغم مع عظمة تلك السحب وكثرتها؛ لأن التعبير بالمضارع يشخص لك الحدث وينقل لك تلك الصورة، فيستشعر المتلقي انسكاب المطر الغزير وكأنه يراه ويعاينه.

وتأمل تبادل الأدوار وما أحدثه من جمال في تلك الصورة من كشف عن العلاقات الخفية بين المعاني المتباعدة التي تبادلت أدوارها؛ حيث جعل الخيل سحابا ليستحضر صورة المطر، إلا أنه يفاجئك بأن مطرها ليس المطر المعهود نزوله من السحاب، وإنما مطرها من نوع يتناسب مع الخيل وقوته وما توجهه إلى الأعداء من وابل من الحديد،

(١) الديوان: ٣٥٦.

ومن عظمة السحاب وكثرتها غمر مطرها ( كل مكان ) من الأرض حتى غسلها لكثرته وغزارته، لكنه ليس كالغسل المعهود، وإنما غسلت بدماء الأعداء، وهذا كناية عن كثرة ما أنزله جيش الممدوح من القتلى، وتأمل قوله:( بالسيوفِ غَسِيلُ ) وهو يجعل وظيفة السيف تطهير ما اتسخ، وليس غايتها الأسمى القتل، فإن هي قتلت فمن أجل الغاية التي تنشدها، وهي القضاء على كل خبيث، وأتي (غسيل) نكرة على صيغة (فعيل) الدالة على المبالغة؛ ليدل على أن ما نزل من السحاب بلغ من الكثرة مبلغا كبيرا، وهذا يتناسب مع عظمة وضحامة تلك السحائب.

ومثل ذلك قوله:

سُحْبٌ تَمُرّ بحصْنِ الرّانِ مُسبِكةً ... وَمَا بها البُخلُ لَوْلا أنّها نِقَمُ

فجعل هذا الجيش لكثرته يتوالى كالسحب، ويصوره لك وهو يمر في حركة دائمة مستمرة، كاشفا عن ضخامته وقوته ، وقد حشد المتنبي لذلك مقومات لفظية رسم من خلالها صورة المعنى عن طريق توظيف ظل اللفظ وما ألقاه من خيال في ذهن المتلقي، ومن تلك المقومات التي ارتكز عليها إيثاره النكرة؛ في قوله( سحب) التي استعارها لجيشه، وأتى بها على صيغة النكرة ؛ ليدل على كثرة عدده وشدة تزاحمه، وعظمة أمره وجلال شأنه ، ومن كمال براعته أنه استعمل ( سحب)، وكأنه يريد أن يريك مشهد الجيش وهو يتحرك بجماعاته وكتائبه، كأنه سحاب متراكم بعضه فوق بعض، يسير في حركة واحدة، لغاية واحدة، فهو لا يقصد بالجمع الكثرة العددية فحسب، وإنما يريد أن يصف لك كثرة جماعاته وكتائبه، من مقدمة، وميمنة، وميسرة، وقلب، وساقة، فكل جزء في نفسه عظيم ويضم عددا كبيرا، كما أن هذه الأجزاء مجتمعه ذات مهابة وعظمة أيضا .

ويستخدم المتنبي النكرة من خلال ألفاظ الطبيعة المائية العلوية في إبراز تفوق ممدوحه على غيره فيقول[1]:

إذا مَطَرَت مِنهُم وَمِنكَ سَحائِبٌ..... فَوابِلُهُم طَلٌّ وَطَلُّكَ وابِلُ

(١) الديوان: ٣٧٦.

وهنا يعقد المتنبي مقارنة، طرفها الأول الممدوح، والثاني نظائره من الملوك، فجعل عطاء الملوك مجتمعين قليلا بجوار عطاء سيف الدولة، وقد استعمل الشاعر كلمات: (سحائب، وطل، ووابل ) على سبيل الاستعارة؛ ليرسم بها صورة تكشف تفوُّق جانب الممدوح منفردا على نظائره مجتمعين، فأتى بلفظة (سحائب) نكرة على صيغة الجمع الدالة على الكثرة؛ ليدل على أن عطاء سيف الدولة يفوق عطاء غيره من الملوك وإن كثر عطاؤهم وعددهم، وتأمل كيف استطاع أن يظهر مقدار ما تفوق به سيف الدولة على نظائره؛ حيث يقول: (فَوابِلُهُم طَلٌّ وَطَلُّكَ وابِلُ) ، فجعل طل عطائه يستغرق وابل عطائهم، وتأمل كيف رتب الألفاظ وكيف وظفها، فقدم وابل وأخر طل، ثم عكس فقدم الطل وأخر الوابل، وهذا نوع من أنواع البديع المعنوي يسمى بالعكس والتبديل، وهو أنْ تقدِّمَ في الكلام جزءًا ثم تعكِسُ، بأنْ تقدِّمَ ما أخرَّتَ، وتؤخِّرَ ما قدَّمتَ[1]، وكلا التركيبين يعطي معنى غير الآخر، وقد ظهر ذلك في توظيف الألفاظ؛ حيث استعار الوابل في جهة الملوك للتعبير عن منتهى ما قد تصل إليهم عطاياهم، ثم شبهه بـ(طل)، وهي نكرة تدل على التحقير والتقليل، ثم عكس الأمر فاستعار الطل لأقل عطايا سيف الدولة وشبهها بالوابل معبرا بلفظ النكرة الدالة على الكثرة والعظمة، وهذا من بديع توظيف الألفاظ وترتيبها.

ولا ينفك المتنبي يمدح سيف الدولة مستحضرا الطبيعة المائية السماوية، وقد سأله المسير معه لما سار لنصرة أخيه ناصر الدولة، فيقول [2]:

وَإذا اِرتَحَلتَ فَشَيَّعَتكَ سَلامَةٌ حَيثُ اِتَّجَهتَ وَديمَةٌ مِدرارُ

(١) حاشية الدسوقي على مختصر المعاني لسعد الدين التفتازاني (ت: ٧٩٢ هـ) : ٤٥/٤، تح: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت.

(٢) الديوان: ٢٧٧.

يدعو الشاعر هنا لممدوحه بأن تصحبه السلامة في سفره، والتركيب هنا ينسجه المتنبي كما أحسه، فيأتي بأدة الشرط (إذا) المفيدة للتحقيق، ويأتي بجوابها ماضيا مقترنا بـ(الفاء)، ومجيء (الفاء) هنا جائز نحويا، وجيء بها على تقدير (قد) التحقيقية، وإجراء للفعل مجرى ما تحقق وقوعه، وهذا يكشف عن دواخل المتنبي تجاه سيف الدولة، فهو يطلب له السلامة، ويرجو أن تتبعه في كل أحواله؛ لهذا أتى بـ(سلامة) نكرة؛ ليدل على أنه يدعو بأن تتبعه سلامة ذات شأن عظيم وقدر كبير تشمله في كل أحواله، فلا يضره معها أي أذى، كما يدعو له بأن يصحبه مطر غزير ينبت له الأرض فتصبح مخضرة بين يديه، واختار الشاعر لفظة (ديمة) دون غيرها؛ لأنه لا يطلب له أي مطر ، وإنما يطلب مطرا غزير السيلان، دائم العطاء، لا أذى فيه، فأتى بـ ( ديمة) نكرة؛ لتدل بمعناها ومبناها على ما استشعره المتنبي من دواخل نفسية تجاه ممدوحه، أما معناها: فالديمة هي: المطر الدائم في سكون ليس فيه رَعْد ولا برق[1]؛ وأما مبناها: فقد أتى بها نكرة؛ لتفخيم دلالتها، وتعظيم عطائها، فأي ديمة تستطيع أن تفي بمطلوب الشاعر إلا إذا كانت ذات شأن عظيم، وعطاء وفير، ووصفها بـ(مدرار)، زيادة في تأكيد ما يريده، وإلحاح منه على تقوية بيانه ليوافق خلجات نفسه، فالمدرار : من دَرَّت السماء بالمطر دَرّاً، إذا كثر مطرها، والدِّرَّةُ في الأَمطار: أَن يتبع بعضها بعضًا، ويقال للسحاب: دِرَّة، أَي: صَبٌّ، وسماء مِدْرارٌ ،أَي: تَدِرُّ بالمطر . [2]

والشاعر هنا لم ينح منحى طرفة في قوله [3]:

فَسَقى ديارَكِ غير مُفْسِدها ..... صوبُ الربيع وديمةٌ تَهمي

(١) لسان العرب، مادة: ( د ي م ) .

(٢) لسان العرب، مادة: ( د ر ر) .

(٣) ديوان طرفة بن العبد: لطَرَفَة بن العَبْد بن سفيان بن سعد البكري الشاعر الجاهلي (المتوفى: ٥٦٤ م): ٧٩ تحقيق، مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م

حيث لم يأت باحتراس كما أتى طرفة، وإن كان بعض النقاد عدها مأخذا على أبي الطيب[1]، إلا أن الأمر خلاف ذلك، فطرفه يدعو بنزول المطر المستمر الغزير على الديار إلا أنه جاء بـ : (غَيْرَ مُفْسِدِها) على سبيل التكميل الاحتراسي، لأنّ سُقْيا الدّيار بمطر كثير قَدْ يفسدها، فدَفع هذا الإيهام بالاحتراس الذي جاء به، أما المتنبي فقد قدم الدعاء بالسلامة فدخل فيها ضمنا السلامة من أثر هذا المطر ، كما أن طرفة يدعو بنزول المطر على ديار المحبوبة ،ولعلها كانت أبنية واهية ضعيفة يخشى عليها الدمار والهلاك، أما المتنبي فيدعو لسيف الدولة الذي يرى فيه الشاعر مثالا للقوة التي لا يضرها مطر وإن كان وابلا.

ويقول ـ أيضا ـ مادحا إياه [2]:

فَبُورِكْتَ مِنْ غَيْثٍ كأنّ جُلودَنَا به تُنْبِتُ الدّيباجَ وَالوَشْيَ وَالعَصْبَا

وَمن وَاهِبٍ جَزْلاً وَمن زاجرٍ هَلا وَمن هاتِكٍ دِرْعاً وَمن ناثرٍ قُصْبَا

يسوق الشاعر هنا أوصاف ممدوحه في صيغة النكرة (غيث، واهب، زاجر، هاتك، ناثر )؛ للدلالة على التعظيم، فهو كغيث غزير ماؤه، عظيم عطاؤه، نزل على جلودهم فصارت كالأرض الخصبة التي غمرها مطر غزير فأنبتت ثيابا من ألوان شتى كما تنبت الأرض نباتا مختلفا ألوانه، وهو رجل يعطي الجزيل حتى كثرت عطاياه، واشتد زجره للخيل؛ ليحثها على المسير، وعظم هتكه للدروع بسيفه، وشقه الأمعاء ونثرها، فانظر إلى هذه الصفات المتتالية التي صاغها المتنبي في صورة النكرة ليجعل منها مراقي من العظمة كل مرقاة ترتفع بالممدوح إلى المدى الذي تستشعر معه أنه قد بلغ من الرفعة درجة لا تطال، وحدا لا منتهى له، وهذا يصور الشعور القوي الذي ترسخ في نفس المتنبي تجاه سيف الدولة.

(١) الوسيلة الأدبية للعلوم العربية ، حسن المرصفي، : ٢/ ١٢٩، الطبعة الأولى، المطبعة الملكية ، ١٢٩٢هـ

(٢) الديوان: ٣٢٦ .

**الطبيعة المائية العلوية في مدائح كافور:**

**لم يكن للطبيعة المائية العلوية نصيب في مدائح المتنبي لكافور، فإذا دققت النظر وأرجعت البصر فلن تجد للطبيعة المائية العلوية إلا مواضع معدودة، فإذا تتبعت النكرة فيها فلن تجدها إلا في مواضع ثلاث، وهي: ( سحاب، وابل، مواطر) وكلها لا تحمل شيئا من العظمة ، ولعل المتنبي بخل على كافور بخلا شديدا بمدحه بألفاظ الطبيعة المائية العلوية؛ لأنه لم يجد فيه ما يحرك تلك الدلالات التي تستوحي هذه الألفاظ، فلم يستشعر تجاهه بصدق العاطفة ولا إخلاص الولاء، تلك الأمور التي من شأنها أن تبعث عناصر الإجادة الفنية وتفجر طاقاتها، فانعدمت تلك الطاقات وهذه الدلالات في مدائح كافور في الوقت الذي تزاحمت في مدائح سيف الدولة؛ لأن كافور في نظره عبد أسود ليس له في المجد ذكر، ولا في الكرم باع ولا عطاء ، بخلاف ما استشعره من إكبار تجاه سيف الدولة ، حتى فتن به وجعله في مكانة عالية تناطح السحاب، وجعل سخاءه يبلغ من الكثرة مبلغا يعجز المطر أن يحاكيه، وقد ظهر هذا جليا فيما تناوله البحث من نماذج.**

**المطلب الثاني: دلالة التنكير على التعظيم بين مدائح سيف الدولة وكافور في ذكر الأجرام السماوية .**

**استعمل المتنبي الأجرام السماوية في مدائحه، إلا أنها لم تكن بكثرة ذكره الطبيعة المائية، وقد وظفها المتنبي على نحو يسهم في خدمة معانيه فيسقط على ممدوحه من صفاتها، ويستمد منها صوره وتشبيهاته وأخيلته متكئا فيها على الأساليب البيانية، ويسقط عليها شعوره تجاه ممدوحه، وكانت تلك الأجرام تظهر على نحو متباين؛ وفقا لحال الممدوح.**

**الأجرام السماوية في مدح سيف الدولة:**

**ورد ذكر الأجرام السماوية في مدح سيف الدولة في مواطن عديدة؛ للدلالة على السمو والرفعة والجمال، وقد حرص المتنبي على أن يقيم مقارنة بين تلك الأجرام وبين سيف الدولة؛ ليكشف عن تفوق ممدوحه عليها، وقد وظف النكرة في سياقاته توظيفا**

أضفى على المعنى دلالات من البهاء والعظمة، ومن ذلك ما جاء بين البدر وبين سيف الدولة، فإذا كان البدر مضرب المثل في الجمال فإن سيف الدولة قد فاق جماله حتى عجز البدر أن يباري سيف الدولة في هذا الجمال، وقد جاء ذلك ممزوجا بذكر الطبيعة المائية الأرضية (البحار) في قوله [1]:

فَأَبصَرتُ بَدرًا لا يَرى البَدرُ مِثلَهُ وَخاطَبتُ بَحرًا لا يَرى العِبرَ عائِمُه

ومن يتأمل هذا المديح يرى ويدرك كيف يعبر الشاعر عن صدق مشاعره وقوة عواطفه الجياشه نحو سيف الدولة، تلك العواطف المتدفقة من روح الشاعر التي جعلته يجمع له في مدحه بين جمال البدر وجلال البحر، ثم يشحذ أدواته الفنية وتعبيراته البلاغية ليعلي شأنه ويرفع قدره، فجعله على سبيل الاستعارة التصريحية بدرا منيرا، وصاغ لفظها في صورة النكرة؛ ليدل على أنه بلغ في الحسن والطلاقة والصباحة مبلغا عظيما، ومن الواضح أن المتنبي في مدحه سيف الدولة يخضع لحالة من الإعجاب ساقته لأن يلح على إثبات تلك الصفات التي يخلعها عليه ليشكل له صورة مثالية تفوق أحيانا مضارب الأمثال، فلم يكتف بجعله بدرا يحمل صفات الحسن والجمال المعروفة، بل ألح في دعواه حتى جعل من بدر السماء إنسانا يرى ويتكلم على سبيل الاستعارة المكنية، ثم يحكي ما دار في خلده وما استقر في نفسه، فبدر السماء عند خروجه على الدنيا واطلاعه على جميع الخلائق لم ير أحدا غير سيف الدولة، وما ذلك إلا لعظم شأنه الذي ملأ الأكوان وغطى على من سواه.

والعجيب هنا أن المتنبي وضع سيف الدولة مع بدر السماء في موازنة لفظية يلمحها القارئ في قوله: (فَأَبصَرتُ بَدراً لا يَرى البَدرُ مِثلَهُ) متكأ على أداة تعبيرية، وهي تكرار الألفاظ ( بدر) و(البدر) الذي ربط به بين معاني القصيدة، وجعل السامع يحس بأن الألفاظ كأنها عقود منظومة متسقة، وليست حبات منفردة متنافرة، فأظهر معالم

(١) الديوان: ٢٥٩.

شخصية ممدوحه الذي أضاء الناس بنوره حتى بدا لناظريه كالبدر في ضيائه وجماله ، بل إنه لم يقف عند حد ادعاء شبه الممدوح بالبدر، بل أطلق العنان لبيانه فأعلى من جانب الممدوح على جانب الجرم السماوي المضيء الذي هو مضرب المثل في الجمال وغاية الشبه في الضياء، فأتى بلفظة(بدر) في جانب الممدوح بصيغة النكرة التي تشعرك بأن صفات الممدوح فاقت ما يمكن حصره وما تستطيع عده حتى أصبحت في حد المبهم، أما في جانب (بدر السماء) فأتى به معرفة؛ ليدل على أن قدره محدد ومعلوم إذا ما قورن بقدر وطلعة سيف الدولة.

ولم يقف إبداع المتنبي وتجويده لصنعته عند هذا الحد في بيان ما تمتع به سيف الدولة من قدر، فمن يتأمل البيت يجد أن المتنبي يظهر خبرة بارعة في توظيف ألفاظه فيطوعها لخدمة معانيه، ويظهر ذلك جليا في التعبير بالفعل: (أبصرت) ثم التحول إلى الفعل (يرى) منفيا بـ (لا)، وهذا التعبير وما فيه من تحول يحمل دلالات عجيبة تكشف عن مقدار العظمة التي أراد المتنبي أن يثبتها لسيف الدولة، فالإبصار بما يحمله من معنى الاطلاع على حقيقة الشيء ظاهرا وباطنا، يدل على أن المتنبي لمح كل صفات الكمال والتمام في سيف الدولة بما في ذلك صفات شكلية ظاهرة، وصفات معنوية باطنة، وهذا دليل على عظمته، ثم تحول من الفعل (أبصر) ، ليأتي بالفعل (يرى) منفيا بـ (لا)؛ لينفي وجود مثيل لسيف الدولة جمع مثل عظمته ومكانته، واستعماله (لا) النافية الدالة على مطلق النفي في الماضي والحاضر والمستقبل، بخلاف (لم) التي تخلص النفي للماضي، و(لن) التي تخلصه للاستقبال، كما أن طبيعتة (لا) الصوتية المنتهية بالمد تشي بمعنى الإطلاق، ودلالة الفعل (يرى) في معناه ومبناه، أما المعنى فإن نفي الرؤية يدل على أن المثيل غير موجود فيما تقع عليه العين وفيما يدور في الخيال أو يخطر في الذهن أو يتأتى في الحلم ، وما ذلك إلا لما قصده المتنبي من عظمة وفخامة سيف الدولة لا يمكن أن تتكرر لا في حقيقة ولا خيال.

أما المبني فقد أتى بالفعل مضارعا؛ ليدل على التجدد والاستمرار، أي أن نفي رؤية المثيل من الأمور المتجددة والمستمرة.

ويستمر الشاعر في رسم صورة الممدوح على نحو يكشف عن إيمان الشاعر بمعانيه ويظهر مكنون نفسه والدوافع التي ملأت كيانه حتى حدت به للوصول بممدوحه لسمات مثالية عن طريق تجويد المعاني وصقلها واستخراج أقصى ما عنده من إتقان، وهذا الأمر استدعاه أن يستعمل الصورة الممتدة؛ فيجعل الممدوح بحرا على سبيل الاستعارة التصريحية، بعد أن جعله بدرا، وكأنه أراد أن يعرض لنا صورة كلية تظهر خصائص الممدوح من عدة زوايا، وينظر إلى كل زاوية بنظرة مستقلة؛ ليبرز خصائصها الفنية كما يستشعرها؛ فيضيف بذلك عمقا إلى الصورة الكلية؛ وليبين كيف تعدد عطاء هذا الممدوح، وأتى بـ (بحر) نكرة؛ لتحمل من المعاني اللطيفة، والدلالات غير المرئية، ما يدل على مكانة هذا الممدوح ؛ لأنها جعلت سيف الدولة بحرا خضما عظيما لا يُرى ساحله من عظمته، ثم يلح في إظهار هذه العظمة بقوله: لا يَرى العِبرَ عائِمُه، أي أن السباح الذي اعتاد السباحة فيه ويعرفه جيدا يعجز أن يرى أو يتصور حجمة وقدره، فما بالك بغيره.

وهذه صورة أخرى مزج فيها المتنبي بين العالم السماوي متمثلا في الشمس، والعالم الأرضي متمثلا في البحار؛ ليجمع لسيف الدولة ما بين عظمة البحر وهيبته، وضياء الشمس وإشراقها، مقدما سيف الدولة على تلك المظاهر بكل ما تحمله من معاني ودلالات؛ فيقول [1]:

بَحْرٌ يكونُ كلُّ بَحْرٍ نُونَه .... شمسٌ تَمَنّى الشّمسُ أن تكونَهُ

جعل المتنبي ممدوحه كالبحر العظيم الذي بلغ من عظمته أنه يغمر بجوده وعطائه كل بحار الدنيا، حتى إن هذه البحار لتغيب في فضله، وتصغر وتقل بجوار كرمه حتى تغيب كما يغيب الحوت ويستتر في ماء البحر الخضم، ومن شدة إيمانه بهذه الدعوى وحرصه على إذاعتها فقد حذف المسند إليه لسرعة الإعلان عما يجده في نفسه

(١) الديوان: ٣٦٩

ويستشعره تجاه ممدوحه من عظمة، وقد وظف المتنبي النكرة لبيان هذه العظمة التي نثرها على ممدوحه، وذلك في قوله: (بحر) أي هو بحر بلغ مبلغا عظيما حتى عظم قدره، وعلا شأنه على (كل بحر)، وإذا أفادت النكرة الأولى التعظيم فإن الثانية قد أفادت العموم؛ ليعلى من شأن الممدوح على كل من عداه، وتأمل كيف أراك حجم هذا البحر، حينما جعل كل البحار كحوت في بحره، فإذا رأيت حوتا في بحر وعرفت قدر الحوت للبحر الذي يسبح فيه علمت ما يمثله هذا الممدوح بالنسبة لغيره، وبهذا فهو يعلمك عظمة ممدوحه في صدر كلامه بالتعبير بالنكرة، ويسرع بتأكيد هذا الإعلام عن طريق حذف المسند إليه، ثم يضع يديك على حقيقة تلك العظمة بإلحاحه على بيان معانيه وتتبع صفات ممدوحه.

ولما كان عشق المتنبي لسيف الدولة قد بلغ مبلغا كبيرا حدا به لأن يصنع له منزلة عالية لا تسامى، فأخذ يكمل صورته بصورة ممتدة جعل مادتها الشمس بما تمتاز به من ضياء ورفعة، فتجده يقول: (شمسٌ تَمَنّى الشّمسُ أن تكونَهُ)، فجعله كالشمس المضيئة ذات المنزلة العالية التي لا يدانيها منزلة، ومن شدة حبه فقد جعل شمسه تمتاز عن شمس الدنيا بما فيها من ضياء وارتفاع، حتى بلغ به أن جعل شمس السماء ـ على سبيل الاستعارة المكنية ـ تتمنى أن لو كانت في قدره، أو تتمثل في شخصه، وتأمل كيف صاغ المعنى؟ وكيف نسجه في لفظه؟ فأتى بلفظة (شمس) نكرة لينشر أضواء من العظمة، تتوهج بأشعة المهابة، وكعادته؛ فإن المتنبي إذا استشعر معنى أو انفعل بفكرة تزاحمت لديه المعاني المصبوغة بانفعاله، فما يكون منه إلا أن يستجيب لتدفق الشعر على لسانه متتبعا إياه؛ فيخرج شعره متلاحم البنيان، مصورا حاله وفكره ونفسيته حتى يستقر في ذهن سامعه، فإذا كان ممدوحه شمسا عظيمة فقد بلغ من عظمته مقدار الأصل الذي تمثل به، وفاق مضرب المثل في الضياء والعلو، حتى جعل شمس السماء تتمنى أن لو كانت هو، وتأمل التعبير بالتمني وما يشعرك بتفاوت القدر بين الممدوح وبين شمس الدنيا، فالشمس علمت قدره، ووقفت عند الفرق الشاسع بينهما حتى استقر لديها أنها لن تكون يوما في منزلته؛ لذلك جاء طلبها في صورة التمني، لا الرجاء ، وقد أكد

هذا المعنى تلك المفارقة اللفظية التي تلحظها في التعبير عن ممدوحه بلفظ (شمس) نكرة بينما أتى في جانب الجرم السماوي بلفظ ( الشمس ) معرفة، وكأنه يضع أمام سامعه الفرق بين الشمسين فالأولى بلغت قدرا عظيما لا يعرف لنهايته حد، أما الثانية فأتى بها معرفة ليشعرك بأن قدرها معلوم وحسنها بجوار حسن ممدوحه محدود.

ومن الصور التي وظف فيها المتنبي الشمس للتعبير عن مكنونات نفسه، مرتكزا على عطاءات الشمس ودلالاتها مقدما الممدوح على الشمس، قوله[1]:

بِسَيْفِ الدَّولةِ الوَضَّاءِ تُمْسِي ... جُفُوني تَحْتَ شَمْسٍ ما تَغِيبُ

يذكر الشاعر أن المساء يأتي عليه وهو بجوار سيف الدولة الذي بلغ في الوضاءة منزلة تجعل من ينظر إليه يظن أنه الشمس، وقدم الشاعر ( سيف الدولة) للاهتمام به والعناية بشأنه، ووصفة بالوضاء للمبالغة، وأسند المساء للجفون على سبيل المجاز المرسل لعلاقة الجزئية، وذلك ليدل على أن الشعور بالمساء لم يتجاوز غطاء العين إلى العين الناظرة؛ لأن ضياء وجه سيف الدولة جعله لا يستشعر زوال النهار وكأنه يحيا في مكان لا تغيب شمسه، وإذا كانت شمس الدنيا بعظمتها تغيب ويطمس ضوءها ظلامُ الليل، فإن ضوء سيف الدولة قد بلغ من عظمته أنه فاق ضوء شمس الدنيا، فإذا اتصف كلاهما بالوضاءة والعلو فإن سيف الدولة ضوؤه لا يغيب ولا ينجلى، أما شمس الدنيا فهي قاصرة عن مجاراته؛ لأنها تأفل وتغيب ؛ لهذا أتى بلفظ ( شمس) نكرة للدلالة على التعظيم، الذي مكن المتنبي أن ينعتها بتلك الأوصاف التي جعلت من سيف الدولة مقدما على أي شمس أخرى.

ومن الأجرام التي استعملها المتنبي في مدحه لسيف الدولة هي النجوم؛ حيث جاءت في سياق وصف خيله؛ فيقول [2]:

(١) الديوان: ٣٦٣.

(٢) الديوان: ٣٦٣ .

تبارى نجوم القذف في كلِ ليلةٍ ... نُجوم لهً منهن وردٌ وأدهم

وهنا المتنبي يرسم صورة لخيل سيف الدولة وهي تباري نجوم السماء التي تقذف على الشياطين، وسمى الخيل نجوما على سبيل الاستعارة لأنها تتلألأ في سواد الليل ببريق الحديد كما تتلألأ النجوم في صفحات السماء، وهذه الخيل تملأ الأرض بكثرتها كما تملأ النجوم السماء، وهي في سرعتها وشدة انقضاضها على أعدائها من كل جانب لدحرهم، تشبه تلك الشهب التي تقذف على الشياطين في الهواء، واختار التعبير بالنكرة في كلمة (نجوم) كي يتسع اللفظ لكل هذه الدلالات؛ لأن النكرة كسرت حدود المعنى وجعلته ينفتح ويحمل من العظمة ما يتسع لخيال الشاعر ، وهذا لم يكن ليتحقق مع غير النكرة.

<u>الأجرام السماوية في مدح كافور:</u>

كما استعمل المتنبي الأجرام السماوية في مدائح سيف الدولة، فإنه –أيضا– قد استعملها في مدائح كافور، والسؤال ... أجاءت تلك الألفاظ مع كلا الممدوحين بنفس القوة والقدر أم هناك تفاوت في الطاقات التعبيرية والدلالات السياقية للألفاظ ؟

ومما مدح به المتنبي كافور مستخدما الأجرام السماوية، قوله[1]:

مُستَقِلٌّ لَكَ الدِيارَ وَلَو كا ... نَ نُجوماً آجُرُّ هَذا البِناءِ

يهنيء المتنبي كافور ببيت جديد بناه، ويقول له : إنه مستقل مثل هذه الديار علي كافور، حتى ولو كان بناؤه من النجوم المضيئة.

والملاحظ هنا أن الشاعر لم يستخدم النجوم فيما اعتاد الناس المدح به من العلو والارتفاع والضياء أو وصف شكلها البديع على صفحات السماء، وإنما ذكرها في ضرب من التخيل المعبر عنه بـ(لو)، قائلا: لو أن بيتا بني بنجوم كثيرة العدد ذات ضياء عظيم لكان قليلا على كافور، واستعمل (النجوم) بصيغة النكرة؛ لتدل على الكثرة، ولتضفي العظمة على هذا البيت الذي رسمه في مخيلته، إلا أن المتنبي هنا يأبى إلا أن يزج

(١) الديوان: ٤٤٦

بالاستهزاء بما بناه كافور؛ حيث وظف ألفاظه وبناء تراكيبه لبيان الحالة النفسية التي يستشعرها تجاه كافور، فجاء بالمسند إليه محذوفا؛ ليشعر سامعه بالحرص على سرعة الوصول لهذا الأمر، وهو استقلاله هذا البناء، وكأن من يراه لا يستطيع أن يتأخر في إصدار هذا الحكم، ثم يقدم الجار والمجرور(لك)؛ ليدل على أن هذا البناء لا يناسب من في مكانته ومنزلته، وكأنه يعرض ببنائه ويقلل من شأنه، على خلاف ما فعله مع خيمة سيف الدولة التي أعلا من شأنها ورفع من قدرها، ثم يأتي بالشرط في قوله: ( ولو كان نجوما ...) مصدرا بـ (لو)؛ للدلالة على استحالة ذلك عليه، وأن وصوله لهذه المنزلة ضرب من الخيال، وتأمل مجيء (كان ) التي أضفت دلالة المضي على السياق، وتوغلت به في الاستحالة، وهي تكشف بذلك عن مدى ما تأصل في نفسه من شعور تجاه كافور ، حيث يراه دائما في منزلة النقص والضعة، ثم قدم خبر كان (نجوما) على اسمها؛ ليكون التوغل في النفي ملتصقا بالنجوم، وبهذا فإن المتنبي يؤكد على انتفاء أي صفة من صفات النجوم لكافور أو ما يتصل به، في الوقت الذي جعل خيل سيف الدولة تتجسم في صورة النجوم، بل تسابقها في سرعتها، وتنازعها ضياءها، وهذا يكشف عن المفارقات الشعورية بين كلا الممدوحين، والتي تنعكس على صورة الألفاظ وطرق توظيفها .

ويستعمل المتنبي الشمس في سياق مدحه كافور؛ فيقول:(١)

تَفضَحُ الشَمسَ كُلَّما ذَرَّتِ الشَمـ... ـسُ بِشَمسٍ مُنيرَةٍ سَوداءِ

يقول: إن كافور له ضياء وإشراق يغلب ضياء الشمس وإشراقها، وهذه الغلبة لا تتحقق إلا إذا امتلك كافور ضياء عظيما وإشراقا هو أشد وضوحا من إشراق الشمس، لهذا جاء بـ (شمس الدنيا) معرفة، وبـ(شمس كافور) نكرة؛ ليدل على أن ضوءه بلغ مبلغا لا يوقف له عند مدى، ولا يعرف لقوته حد، لكن يأبى المتنبي إلا أن يطمس هذا المعنى ويحوله إلى هجاء، كاشفا بذلك عما استقر في خلجات نفسه، وطيات وجدانه تجاه كافور، فيخرج

(١) الديوان: ٤٤٧.

ألفاظه وتراكيبه وفق شعوره، ومن ذلك إسناده فعل الفضح لكافور ، وجعله سمتا يتجدد عنده، بدليل التعبير بالمضارع في قوله:(تَفضَحُ )، ثم استعمال (كلما) الدالة على التكرار، وكذا التعبير بـ (ذَرَّتِ الشَمس)، أي: طلعت، ومعلوم أن ظهور الشمس أمر متجدد أيضا، فكذا فعل الفضح عند كافور متجدد .

وكما عقد المتنبي مقارنة بين الشمس وسيف الدولة فإنه عمد– أيضا – إلى عقد مقارنة بين كافور وبين الشمس، لكن فرق بين حال وحال، ففي جانب سيف الدولة أعلى من شأنه وفخم من أمره لحد جعل الشمس بعظمتها تتمنى أن تكون في مكانته، أما هنا فتجد الشاعر قد عمد إلى أن يعقد المقارنة بين كافور وبين أول ضوء للشمس يسقط على الأرض لحظة طلوعها، ومعلوم أن هذه الحالة من أضعف حالات الشمس في الضياء والتوهج، فهي لم تفارق بعد خدرها، ولم تخلع عنها ثوب الضحى، وفي ذلك إشارة إلى ما يجده في نفسه تجاه كافور من منزلة ومكانة، ثم يعطي الشمس وصفا لا تعرف به، ولا يتصل بصفاتها، بل هو يناقض ضوءها، فيصفها بالسوداء، وكأنه بذلك يطمس من الشمس حسنها، وبهاءها ورونق ضياءها الذي يعرف عند نصوع لونها وتمام شعاعها، فكيف تستطيع هذه الشمس السوداء أن تكون مصدر نور وضياء وأن تضاهي الشمس الحقيقية؟ وكأنه يعرض بحال كافور فكأنه يقول له: إنك إن وليت ملكا فالناس لن يجدوا منك ما يرجى وينتظر، ولعل ذلك ما حدى بابن جني أن يعلق على هذا البيت قائلا: " تهزُّؤ به "،[1] كما أنه قصد بذلك إهانته واضعا يديه على أكثر المواضع إيلاما عند كافور، وهو ذكره السواد لعلمه " أن ذكر السواد على مسامع كافور أمر من الموت"[2] وهذه الأمور لا تجدها عند مدحه لسيف الدوله، الذي جعل منه المتنبي شمسا لا يأفل ضوؤها، ولا يغيب شعاعها، فضياؤه لا تطمسه ظلمة حتى وإن غابت شمس الدنيا، كما

(١) شرح الديوان لابن جني: ١/ ١٣٧، تحقيق د/ رضا رجب، دار الينابيع، دمشق.

(٢) الصبح المنبي عن حيثية المتنبي، يوسف البديعي، ١١٥، ١١٦ ، تحقيق: السقا، ومحمد شتا، دار المعارف، ١٩٦٣م

جعل منه غاية تطلب شمس الدنيا الوصول إليها لكمال صفاته، وعلو مكانته، وعليه فالبون شاسع بين شمس سيف الدولة وشمس كافور.

**المطلب الثالث: دلالة التنكير على التعظيم بين مدائح سيف الدولة وكافور في ذكر الطبيعة المائية الأرضية .**

**أولا: الطبيعة المائية الأرضية في مدائح المتنبي لسيف الدولة :**

مدح المتنبي سيف الدولة مستخدما ألفاظ الطبيعية المائية الأرضية التي منها البحار، ومن ذلك قوله[1]:

أَرى كُلَّ ذي مُلكٍ إِلَيكَ مَصيرُهُ ... كَأَنَّكَ بَحرٌ وَالمُلوكُ جَداوِلُ

ينسج أبو الطيب لسيف الدولة مكانة عظيمة تميزه عن كل ملوك الدنيا؛ فيقول: أرى كل صاحب ملك وإن طال بعده عنك فإن مصيره لا محالة إلى الخضوع إليك، وقد نسج تلك الحقيقة بإحكام وإتقان؛ حيث عبر بالفعل (أرى) الذي يشمل الرؤية البصرية وغيرها، وكأنه يقول: إن كل من يمكنه أن يرى أو يفكر يستطيع أن يصل لهذه الحقيقة، و استعمل ما يدل على العموم في قوله:( كُلَّ ذي مُلْكٍ)؛ ليعلن للجميع أنه لا استثناء لأحد من هذا المصير مهما علا قدره أو عظم شأنه، فالكل تحت رايته خاضع، ومسلم بالتبعية له، وهذا الأمر لسيف الدولة خاصة دون غيره؛ لذلك قدم الجار والمجرور (إليك) على (مصيره)؛ ليدل على الاختصاص، ثم صاغ المتنبي صورة بيانية تحمل من الطبيعة مدركات حسية استطاع أن يجمع بينها ليجعل الفكر يقيس عليها ويثبت بها دعواه التي نسجها في الشطر الأول عن طريق لفت النظر إلى إمكانية هذا الادعاء بواسطة التشبيه الذي استعان فيه المتنبي في إخراج صورته على ثقافته العلمية في معرفة حقائق جغرافية، وتوظيف تلك الحقائق لبناء هذه الصورة، فجعل الملوك أنهارا، وجعل سيف الدولة بحرا خضما عظيما، فإذا كانت الأنهار تجرى وتسير وتقطع الأميال فإنها تؤول

(١) الديوان: ٣٧٦ .

وتستقر في نهاية رحلتها عند مصبها، وعبر الشاعر عن ممدوحه بـ (بحر) بلفظ النكرة ؛ وعن غيره بلفظ (جداول) وهي –أيضا– نكرة أتت على صيغة الجمع ليرسم للمتلقي صورة ملوك الدنيا مجتمعين بعظمتهم وكثرتهم، أمام صورة سيف الدولة بعظمته وهيبته وقوته ووقاره ، ثم يرجح مكانة سيف الدولة منفردا على مكانة ملوك الدنيا مجتمعين ، فجعل من سيف الدولة منفردا بحرا خضما بعيد القرار لا يعرف له ساحل حتى استطاع أن يستوعب كل هذه الأنهار العظيمة مجتمعة، فلا ملك إلا وهو واقع تحت ملكه.

ومن استخدامه لفظة بحر في مدائحه قوله[1]:

شَفاكَ الَّذي يَشفي بِجودِكَ خَلقَهُ..... لِأَنَّكَ بَحرٌ كُلُّ بَحرٍ لَهُ بَعضُ

يدعو الشاعر هنا لسيف الدولة بالشفاء مستخدما الخبر( شفى) الذي يراد به الإنشاء تيمنا بحدوث الشفاء، ثم استحضر في دعائه بعض خصاله وكأنه يتقرب بها بغية استجابة الدعاء، فقال : (يَشفي بِجودِكَ خَلقَهُ) مستخدما الفعل المضارع (يشفي) الذي يدل على الاستمرار والتجدد، أي: أن الله سخره واصطفاه ليكون جوده سببا من أسباب شفاء الخلق؛ إذ بجوده وعطاياه يشفي ألم الحاجة ويزيل مر الفقر، ثم يعلل لذلك قائلا: ( لِأَنَّكَ بَحرٌ كُلُّ بَحرٍ لَهُ بَعضُ)، وصدَّر تعليله بالتأكيد؛ ليخرج كما أحسه، وينسجه كما شعر به، ثم يشبهه بالبحر حاذفا أداة التشبيه؛ وكأنه بلغ بينهما الشبه مبلغا كبيرا ، وأتى بـ(بحر) نكرة؛ ليدل على أنه بحر خضم بعيد الساحل، غائر القاع كثير العطاء، لا يوقف لعطائه عند حد ولا قدر، حتى صار كل بحر من بحار الدنيا جزءا منه، وكل كريم فكرمه يرجع إليه؛ لذا أتي بـ (بحر) الثانية نكرة؛ ليدل على العموم، فكل بحار الدنيا تستمد عطاءاتها من جوده، وكأنها بضعة منه، وتأمل تنكير (بحر) الأولى ، وما ولدته من معنى حمل بين طياته معنى العظمة التي استوعبت كل بحر، وهذا التوظيف مقصود عند

(١) الديوان: ٣٦١ .

المتنبي؛ إذ إنه عند مدحه سيف الدولة يضعه في مقارنة مع غيره حتى يشيد له برجا عاجيا يرتقي به عن من سواه، ويظهر غيره تابعا له.

وكما وصف المتنبي سيف الدولة بأنه بحر، فقد جعل من جيشه –أيضا– بحرا؛ فيقول[1]:

رَمَيتَهُمُ بِبَحرٍ مِن حَديدٍ ... لَهُ في البَرِّ خَلفَهُمُ عُبابُ

أراد المتنبي مدح سيف الدولة؛ فأخذ يصف قوة جيشة وفخامته الدالتين على هيبة قائد الجيش و مُسيِّر أمره، فنسب الهيبة والعزة والقوة إلى الخيل، و أراد كل ذلك للممدوح، إمعانا منه في وصف عظمته وهيبته، وقد أبدع الشاعر في نسج صورته؛ حيث جعل الخيل بحرا على سبيل الاستعارة، وكأن خيله من كثرتها وعظمتها صارت بحرا خضما، وتأمل مجيء (بحر) نكرة؛ وما ولدته النكرة من دلالات تستشعر معها أن الممدوح ليس أي بحر، وإنما هو بحر غير البحار المعهودة المعروفة، بحر لجي عظيم، بلغ من عظمته أنه خالف بحار الدنيا؛ فلم يتكون من ماء، وإنما تكون من حديد، وجاء بـ(حديد) نكرة؛ لتناسب عظمة البحر وهيبته وما يضمه من قوة، ويتنقل الشاعر في صورته بين صفات الخيل، وصفات البحر مستحضرا من هنا ما يجمل الصورة ومن هناك ما يتمم معناها، فعندما أراد أن يصف مادة البحر جعلها من حديد؛ إشارة لكثرة ما عليه من الأسلحة، ولكثرة لابسي الحديد فيه ، ثم عاد فذكر ما يلائم المستعار منه وهو العباب والبر، فجعلهم يموجون خلفهم في سيرهم كموج البحر، وهو عبابه،فخُيِّل للسامع أن المراد هو البحر حقيقة ، فهو يبني صورة متكاملة ويشيد صرحا عظيما وفق دوافع نفسيه حدت بالشاعر إلى هذا النسق الجميل في البناء الفني، الذي عمد إليه؛ ليكشف عن منزلة الممدوح ومكانته التي يستشعرها في نفسه؛ لذلك جعل هذا الجيش العظيم بما اشتمل عليه من قوة وعدة كشيء في يد الممدوح يرمي به حيث شاء على من شاء متى شاء؛ لهذا صدر البيت بقوله: (رميتهم ).

(١) الديوان: ٣٨٤ .

ومن وصفه الجيش ورجاله بالبحر قوله[١]:

وَلَّما عَرَضْتَ الجَيْشَ كانَ بَهَاؤُهُ ... عَلَى الفَارسِ المُرْخِي الذُّؤَابَةِ مِنْهُمُ
حَوَالَيْهِ بَحْرُ للتَّجافيفِ مائجُ ... يَسيرُ به طَوْدُ من الخَيْلِ أيْهَمُ

جعل الشاعر المحيطين بسيف الدولة من أفراد جيشه الذين يحملون أسلحتهم، بحرا على سبيل الاستعارة التصريحية، وما ذلك إلا بسبب ما قصده من بيان عظمة هذا الجيش وكثرة عدده وعدم الإحاطة بجوانبه، ووظف من أجل ذلك كلمة (بحر) التي جاءت نكرة؛ لتحمل من العظمة ما يليق بهذا الجيش وقائده، ولهذه العظمة والكثرة وصفهم بـ(مائج) أي: متداخلين بعضهم في بعض حتى إذا نظرت لهم لا تعرف أولهم من آخرهم، ولا تحصي لهم عددا، وكعادة المتنبي في تتبعه لمعانيه وإلحاحه على ما تنطوي عليه نفسه، فهو لم يكتف بتلك الأوصاف، بل أردفها بصورة أخرى؛ ليصل بالمعنى إلى المتلقي بتقلبات متعددة تحاكي وجدانه الشعوري، و تؤكد على عظمة هذا الجيش وقوة خيله وفرسانه؛ فيقول: (يَسيرُ به طَوْدُ من الخَيْلِ أيْهَمُ) أي: يسير بذلك البحر موكب من الخيل تشبه الجبل الأيهم، أي: الشامخُ الصَّعْبُ الطويلُ الذي لا يُرْتَقَى[٢]، وعبر بـ(طود، و أيهم ) بصيغة النكرة؛ للدلالة على عظمة تلك الخيل وقوتها.

وبهذا فقد استطاع الشاعر أن يرسم صورة تحرك الخيال والعواطف من خلال نظم مفرداته وتنسيق علاقاته، فعبر عن معانيه الذهنية في صورة حسية مؤثرة جمعت لجيش سيف الدولة وخيله عظم البحار ، وقوة الجبال.

٢: الطبيعة المائية الأرضية في مدائح المتنبي لكافور.

_ إذا كان المتنبي قد أحب سيف الدولة وأخلص له حتى أتى مدحه موافقا لدوافع نفسه وخلجات قلبه، فإنه لم يجد لكافور مكانا في قلبه، فمدحه بلسانه دون أن يستشعر تلك المعاني في داخله، فهل كان ذلك ظاهرا في بيانه واضحا فيما جرى على لسانه ؟

(١) الديوان: ٣٠٤ .

(٢) لسان العرب مادة ( ي هـ م) .

سيحاول البحث الإجابة عن هذا السؤال من خلال عرض عدد من نماذج شعره التي قالها في مدح كافور .

يقول المتنبي في أول مدائحه لكافور [1]:

وَلَكِنَّ بِالْفُسْطَاطِ بَحْرًا أَزَرْتُـــهُ حَيَاتِي وَنُصْحِي وَالْهَوَى وَالْقَوَافِيَا

هذا البيت يعد أول أبيات المديح في أول قصيدة مدح بها كافور، ومن الواضح أن المتنبي لم يكن صادقا في مديحه له، بل كانت غايته تحقيق النفع المادي وسياق القصيدة يدل على ذلك، فمع أول نفس فيها مرورا بأول بيت مدح المتنبي فيه كافورا وصولا لتصريحه بالهجاء في قصائد أخرى تجد ذلك الأمر وتستشعره، ولعل العامل النفسي هنا كان له دور بارز في توظيف المفردات، فلقد أتى المتنبي إلى مصر لغاية محددة مدح كافور من أجلها ووضع في ذهنه كل الاحتمالات التي منها عدم تحقق تلك الأماني، فأبقى لنفسه مساحة للرد على من قد يعيره بمدح كافور، وأعد الإجابة على ذلك بأن مدحه كافور لم يكن ينال من المدح إلا وجهه الظاهر ، و هو في داخله وحقيقته هجاء، فوظف ألفاظه بطريقة تجعلها ذات مستويات دلالية متعددة تحتمل أكثر من مغزى، وتأمل ذلك في تعبيره بكلمة (بحرا) التي جاءت نكرة، وقد وظفها بدقة عالية وذكاء ملحوظ؛ حيث أوهم سامعه أنه يريد بها الكرم الواسع والعطاء الدائم، كما هو معلوم عند الشعراء من تشبيههم الكرام بالبحر، وأتى به نكرة؛ ليدل على أنه بحر عظيم الشأن، ولكن هل هذا البحر الذي استعاره لكافور هو نفسه الذي استعاره لسيف الدولة في قوله[2]:

فَأَبصَـــرتُ بَـــدراً لا يَـــرى البَـــدرُ مِثلَـــهُ وَخاطَبتُ بَحراً لا يَرى العِبرَ عائِمُه

لقد تحقق لدى المتنبي أن سيف الدولة قد جمع الصفات التي اشتهرت عن البحر، فهو بحر من عظمته لا يرى له ساحل، بحر حاضر في المشهد بكل صفاته ومعانيه

(١) الديوان: ٤٤٢ .

(٢) الديوان: ٤٤٢ .

وعظمته، أما بحر كافور فإذا أرجعت فيه البصر وعاودت التأمل والنظر تجد أنه لا يكاد يرى، وكأن المتنبي وظف دلالة التنكير لتطابق الحالة النفسية التي ترسخت لديه من تحقير هذا الممدوح ووضاعة أصله ونسبه، ويؤكد ذلك افتتاح البيت بحرف الاستدراك (لكنّ ) وهذا ليس من قبيل المصادفة، وإنما قصد الشاعر هذا الأمر قصدا ؛ ليشير إلى أن هذا الممدوح لم يكن له الحضور اللامع الذي يجعل منه علما يدفع الشاعر لذكره ابتداء، بل كان نسيا منسيا بعيدا عن الذهن، فلما تذكره أورده استدراكا، فهذا الممدوح لا يتمتع بالعظمة التي يؤتى إليه طوعا على حب ولهفة؛ لذا تجد المتنبي يقسر نفسه قسرا على المضي نحو كافور ويحملها على تلك الرحلة وكأنها كارهة ممتنعة وهو يدفعها عنوة، وقد دفع ذلك أبو بكر الكندي إلى أن يعلق على هذا البيت قائلا : "إنه سخف وتطفل وتعد على الوزراء وكبار الدولة؛ لأن قوله: آزرته حياتي معناه جعلت حياتي تزوره، وليس لهذا المعنى قيمة يتجه إليها شاعر، ثم يقول: وآزرته نصحي فيدعى أنه وصل في أصالة الرأي وبعد النظر في السياسة إلى القمة، وأنه قدم من الشام؛ لأن الأستاذ كان في حاجة إلى نصحه وثاقب رأيه، على الرغم من كثرة قوّاده ووزرائه" [(١)]، كل هذا يكشف عن نية المتنبي وقصده في استعمال ( بحرا) نكره، ويجعل البحث يميل إلى أن المتنبي وظف اللفظة هنا على غير المشهور من شأنها في المديح.

وقد يقول قائل : <u>كيف يتأتى استعمال البحر في الذم والمعهود عنه أنه مضرب المثل في الكرم والسخاء ؟.</u>

ويمكن الرد على ذلك بأن هذا الاستعمال يشف عن غزارة ثقافة هذا الشاعر الذي استطاع أن يوظف تلك اللفظة على تلك الهيئة لرسم ومضات نفسية تجول بخاطره، ويشهد على ذلك أن من يتتبع لفظة البحر يجد أن استعمالها في الكرم هو الوجه الظاهر المشهور، وقد استغل المتنبي هذا الوجه ليكون هو ما يلوح لسامعيه ويغري ممدوحه،

(١) نقلا عن على الجارم في الأعمال النثرية الكاملة، ١٤٢، دار الشروق، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ، ١٩٨٩م.

ولكن المتأمل يجد أن أبا الطيب لم يغب عنه الأوجه الأخرى لمعنى البحر والظلال النفسية لتلك المفردة، فنجح في توظيفها توظيفا مبدعا، بحيث جعلها ترسم وتجسم حالته الشعورية تجاه هذا الممدوح، فمعلوم أن البحر يغلب على الماء المالح حتى قَلّ في العَذْبِ، وسمي بَحْرًا لملوحته [١] والماء المالح كما هو معلوم لا يرجى منه نفع في شراب ولا ري لعطش، كما أن من استعمالات هذه اللفظة أنها تطلق على الشاة أو الناقة التي لا يُنْتَفَع منهما بلبن ولا ظَهْرٍ ، بل إن ماء البحر إذا شُرِبَ أَوْرَثَ دَاءً. كذلك كُلُّ مَاءٍ مِلْحٍ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَاءَ بَحْرٍ [٢]، وَمِنْه – أيضا– الرَّجُلُ الْبَاحِرُ، وَهُوَ الْأَحْمَقُ، وذلك أَنَّهُ يَتَّسِعُ بِجَهْلِهِ فِيمَا لَا يَتَّسِعُ فِيهِ الْعَاقِلُ [٣]

كل هذا من المحتمل أن يكون مما لاح في ذهن المتنبي وهو صاحب الثقافة العالية والمحصول اللغوي الضخم؛ فيكون قد قصد هذه المعاني قصدا ووظفها ببراعته؛ لتعكس ما عليه من حالة نفسية، فأتى بالوجه المظلم المخيف للبحر؛ لذلك تجد أن الشاعر قد التفت في البيت التالي من المتكلم المفرد للجمع، فيقول [٤]:

وجردا مددنا بين آذانها القنا فبتن خفاقا يتبعن العواليا

فهو يستشعر الخطر القادم عليه الذي علم أنه لافائدة منه ولا نفع، بل هو كالداء العضال، فلما قدم عليه لم يكن قدومه منفردا بل كان معه مقاتلون شجعان أظهر وجودهم في ضمير الجمع ( مددنا) محملين بالأسلحة الفتاكة ( القنا ، جرد) أهذه رحلة لممدوح

---

(١) ( لسان العرب: مادة ب ح ر )

(٢) نفسه

(٣) معجم مقاييس اللغة،أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ): مادة ( ب ح ر )، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.

(٤) الديوان: ٤٤٢ .

يرجى منه العطاء أم رحلة تحيط بها المخاوف والقلق ؟، ومعلوم أن المتنبي لم يحب غير العرب وكره العجم، وظهر ذلك في داخله حتى تسرب إلى ألفاظه ومعانيه.

ومن ذكره البحر في سياق مدحه لكافور قوله[1]:

وإني لَفي بَحْرٍ مِنَ الخَيْرِ أَصْلُهُ ... عَطَايَاكَ أَرجو مَدَّها وهي مَدُّهُ

يمدح الشاعر هنا كافور ويذكر أنه هو أصل الخير الذي يعيش فيه ومنبعه ، هذا الخير الذي عظم شأنه ،وكبر قدره حتى بلغ من كثرته وضخامته أنه صار بحرا، ليس كأي بحر، وإنما هو بحر لا يعرف ساحله، ولا يوقف عند قاعه، ويدل على ذلك استعمال لفظ (بحر) نكرة ، ولو اكتفى الشاعر بقوله: (وإني لَفي بَحْرٍ مِنَ الخَيْرِ أَصْلُهُ ... عَطَايَاكَ) لكان مدحا خالصا، إلا أنه يأبى إلا أن يمزج مدحه لكافور بما يكدر صفو المعاني، فيقول: ( أَرجو مَدَّها وهي مَدُّهُ) والضمير في ( مدها) راجع للعطايا، وفي ( مده) للبحر، فهو يطلب منه ويرجوه أن يتابع عطاياه التي هي مداد لماء البحر وزيادة له، وهنا تلمح من المتنبي عدم الرضا بعطايا كافور، وتعريضا ببخله؛ لهذا صرح بطلب المزيد من العطايا، كما تلمح منه خوفا من إمساك كافور عن العطايا؛ لهذا فالمتنبي يصرح في طلب المزيد، وكل هذا لا يليق بطباع الملوك، الذين يعطون عطاء لا يتطلب معه ازديادا، ولا ينقطع عطاؤهم، بل يعطون دون طلب أو إلحاح، وهذا الأمر يظهر التدافع الذي يعيشه المتنبي بين رغباته وطموحاته التي تسوقه لإبراز جانب العظمة لكافور من جانب، وبين شعوره ووجدانه تجاه كافور، حيث الكره والاحتقار من جانب آخر، ولكن عبقرية المتنبي استطاعت أن توفي لكلا الجانبين حقهما بذكاء متوقد.

ومما مدح به المتنبي كافور مستعملا الطبيعة المائية الأرضية قوله: [2]

أجفَلَ النّاسُ عن طَرِيقِ أبي المِسـ ـكِ وَذَلّتْ لَهُ رِقَابُ العِبَادِ

كَيْفَ لا يُتْرَكُ الطّرِيقُ لسَيْلٍ ضَيّقٍ عن أتيّه كلّ وادِ

(١) الديوان: ٤٥٧ .

(٢) الديوان: ٤٤٢ .

يقول أبو الطيب: إن الناس يتفرقون عن طريق كافور ليخلوا له طريق المجد، وذلك لهيبته وعظمته، فلا يعارضه أحد، ولا تثنيه قوة عما يريد، ثم يتعجب مستخدما أسلوب الاستفهام؛ ليجعل السامع يشاركه هذا الشعور، ويصيغ هذا التعجب في صورة مثل يستمد عناصرها من الطبيعة المائية، فيقول كيف للطريق لا يترك لسيل عظيم بلغ من قوته مبلغا عظيما حتى ضاق عن مائه كل واد، وتأمل كيف أتى بلفظ (سيل) نكرة؛ ليضفي علي ظاهر لفظه من دلالات العظمة والقوة ما يفتح له بابا يمكنه بأن يصف هذا السيل بصفات تدل على عظمته وضخامته وشدة قوته؛ ليتخذ من ذلك مثالا أو معادلا لكافور.

إلا أن المتنبي في بنائه لمعانيه تجده يوجه الذم لكافور من طرف خفي؛ حيث يلبس شعره ثوب المديح الذى غلف به معاني الهجاء وسترها به، و اتخذ من ذلك سبيلا للتنفيس عن مكنون صدره وعقله، فجعل الناس تخلي لكافور الطريق، وفي ذلك تعريض بالكره الذي زرع في قلوب الناس له؛ لأنه أينما توجه لا يأتي بخير، بل يسير معه الخراب والدمار حيث يسير؛ لذلك جعله سيلا من شأنه أن يدمر الأخضر واليابس، ويغرق النافع والضار، ثم تأمل لفظة (أتيّه) بما تحمله من تعريض وذم؛ لأن الأتّي هو الذي يكون في القوم ليس منهم ولا يعرف له نسب؛ ولهذا يقال للسيل الذي يأتي من بلد مطر فيه إلى بلد لم يمطر فيه: (أتّي)؛ حيث جعل كافور ممن لا ينسب إلى أب معروف[1]،بل وجعل وجوده غير مرغوب ولا محبوب، وبهذا استطاع المتنبي أن يجعل من لفظة (سيل) ذات مستويات دلالية متعددة، فاستمد من كل مستوى ما يطلبه في أداء المعنى الظاهري، ورسم به ما يستشعره تجاه الممدوح من بغض، كل ذلك في نسق عجيب وترتيب بديع.

**المطلب الرابع: دلالة التنكير على التعظيم بين مدائح سيف الدولة وكافور في سياق المدح بقوة الجيش وكثرة العتاد.**

(١) رسالة في قلب كافوريات شرح حسام زادة الرومي-ابن الحسام، تح: محمد يوسف نجم ، دار الأمانة، ١٩٧٢م.

أولا: دلالة النكرة على التعظيم في سياق مدحه سيف الدولة بقوة الجيش وكثرة العتاد.

كما وظف المتنبي النكرة في مدح سيف الدولة مستخدما الطبيعة المائية، تجده –أيضا– يمدحه مرتكزا على وصف جيشه وأسلحته وخيله، ومن ذلك قوله ذاكرا استنقاذ سيف الدولة لأبي وائل تغلب بن داود من الأسر(١):

دَعـــا فَسَـــمِعتَ وَكَـــم ساكِـــتٍ عَلـــى البُعـــدِ عِنـــدَكَ كَالقائِـــلِ

فَلَبَّيتَـــهُ بِـــكَ فـــي جَحفَـــلٍ لَـــهُ ضامِـــنٍ وَبِـــهِ كافِـــلِ

خَـــرَجنَ مِـــنَ النَقـــعِ فـــي عـــارِضٍ وَمِـــن عَـــرَقِ الـــرَكضِ فـــي وابِـــلِ

يريد المتنبي هنا كعادته أن يضع ممدوحه سيف الدولة في مكانة فريدة، ومنزلة بعيدة يصعب على غيره الوصول إليها، ويرسم تلك المنزلة عبر وصفه موقفا من مواقف شجاعته وقوته؛ حيث دعاه أبو وائل لاستنقاذه من الأسر فأجابه سيف الدولة بسرعة دون تمهل أو تردد، ولكن المتنبي يرى أن هذا الفعل لا يبنى لممدوحه المجد الذي يستشعره ويطلبه، فلم يجعل استنقاذه أبا وائل مشروطا بالطلب، وإنما صرح بأن أبا وائل لو سكت ولم يدع ما تقاعص سيف الدولة عن الذهاب إليه ولم يكن ليغفل عنه، فكم صاحب حاجة لم يستغث به لبعده، إلا أن سيف الدولة لم يغفل عنه بل أولاه اهتمامه ومنحه اعتناءه حتى تساوى عنده الساكت بالقائل فكلاهما محل عنايته؛ لهذا تجد الشاعر يصور خروج سيف الدولة من أجل استنقاذه أبا وائل في لوحة تكشف عن تلك المكانة التي صورها للمتلقي، مسدلا عليها لمسات شعورية، ونبضات من المشاعر المتأججة، مستخدما لذلك أدواته الفنية التي تساعده على تشييد تلك المكانة، فيقول: (فَلَبَّيتَـــهُ)؛ حيث أتى بـ(الفاء)؛ للدلالة على السرعة في الاستجابة وعدم المهلة، واستعمل لفظة ( لبى) دون غيرها كـ: أجاب،أو أرسل؛ لأن (لبى) تبث في النفس الشعور باللزوم والثبات،

(١) الديوان: ٢٧٠ .

وذلك لأن من معانيها اللزوم والثبات [١]، وكأن سيف الدولة ألزم نفسه هذا الفعل حتى صار سجية فيه، وتأمل قوله: (بك في جحفل) أي أنه لم يرسل إليه جيشا فحسب بل حرص على أن يكون في مقدمته، ولم يرسل له جيشا عاديا وإنما أرسل له جيشا بلغ من القدر مبلغا عظيما، حتى كان لهذا المستنجد ضامنا لفك أثره، وكفيلا بتعجيل نصره، وتأمل كيف استطاع المتنبي أن يظهر لسامعه برنين خفي ما يستشعره من عظمة نحو هذا الممدوح، وكيف امتدد هذا الإعجاب ليصل إلى كل ما ينتمي لهذا الممدوح عن طريق تلك العواطف التي تفاعلت مع فكر الشاعر فترجمها العقل إلى عبارات تكشف عن الدفين من المعاني والمخبأ من الدلالات، فعبر بـ( جحفل) والتي تفيد بمعناها ومبناها العظمة والكثرة، فمعناها الجيش الكثير ولا يكون ذلك حتى يكون فيه خَيْل[٢]، وأتى بها نكرة ليضفى على المعنى قوة وعظمة، حيث دلت النكرة على أن جيش سيف الدولة جيش عظيم قد بلغ مبلغا لا يوقف عند حده، ولا يحاط بقدره، يستند إليه في الملمات وفي الشدائد ، فهو كثير العدد ، عظيم القدر والعدة، ويأتي التنكير في كلمتي ( ضامن، وكافل) سائرا على ذات النغم الدال على التهويل والتعظيم والتفخيم، فالجيش قد ضمن للأسير الخروج من الأسر، وهذا الضمان بلغ حدا كبيرا، كما أنه كفل بتحقيق النصر بقدر عظيم .

ويستمر المتنبي في كشف اللثام عن قوة هذا الجيش وعظمته، فيقول[٣]:

خَـــرَجنَ مِـــنَ النَقـــعِ فـــي عـــارِضٍ وَمِـــن عَـــرَقِ الـــرَكضِ فـــي وابِـــلِ

فالشاعر هنا يصف حال خيل سيف الدولة حين خروجها للحرب، ويقول: إنه بسبب كثرة عددها ارتفع غبارها وانهال عرقها، حتى أصبحت من الغبار في سحاب، ومن

(١) ينظر مقاييس اللغة، مادة ( ل ب ب)

(٢) ينظر لسان العرب، مادة ( ج ح ف ل) .

(٣) الديوان: ٢٧٠ .

العرق في مطر، ومن يتأمل هذا البيت يجد فيه براعة في النظم وجزالة في اللفظ وقدرة على توليد المعاني لتأتي متوافقة مع شعور المتنبي وما يجده في خلده، مستوعبة إحساسه، فهو ما زال يجد في نفسه رغبة في إظهار قوة جيش سيف الدولة، تلك القوة التي بلغت مبلغا كبيرا فلا يعرف لها نهاية ولا يوقف لها عند وصف، فينقل بالسامع إلى لوحة تكشف له مقصده وتدخله في أجواء المعركة من خلال تعبيراته القوية وتصويراته الرائعة، ومن ذلك تشبيهه للغبار الصادر عن ركض الخيل بكلمة (عارض)، أي: ( السحاب)، وجاءت هنا نكرة للدلالة على أن الغبار بلغ قدرا كبيرا حتى صار كسحاب عَظُم شأنه حتى ملأ الآفاق، وشبه عرق الخيل بـ (وابل)؛ ليدل على أن عرقها قد بلغ من الكثرة مبلغا عظيما حتى صار كالمطر الغزير ، وهنا تلاحظ تلاؤم الشعور الداخلي للشاعر مع رغباته وتطلعاته؛ لهذا تجد ألفاظه تحمل طاقات من المعاني التي سخرها في الكشف عن عظمة سيف الدولة في براعة نظم وجزالة لفظ، حتى جعل منه نموذجا فريدا ومثالا نادرا دون أن تستشعر خللا أو نقصا، بل تجد تناغما بين دلالات الألفاظ وتوظيفها داخل السياق، وما ذاك إلا لتناغم المعاني مع وجدان الشاعر وشعوره.

ويمدح المتنبي سيف الدولة في موضع آخر واصفا خيله فيقول[1]:

إن خُليَتْ رُبطَتْ بآدابِ الوغى ... فدعاؤها يُغني عن الأرْسانِ

في جحْفَل ستَرَ العيونَ غُبارُه ... فكأنّما يُبصِرْن بالآذانِ

يصف خيل سيف الدولة بأنها خيل كريمة مؤدبة، فهي إن أرسلت وأطلق سراحها تظل مربوطة بما فيها من أدب، كما أنها لا تحتاج إلى أن تجذب بالرسن، أي: الحبل ؛ لتنفيذ ما تطالب به؛ لأنها بمجرد أن تدعى تلبي دون جهد أو عناء، ثم أراد المتنبي أن يصف لك كثرتها ويوقع عينيك على عظمتها ؛ فيضع تلك المعاني في لوحة فنية غاية في الروعة والإتقان، رسمها بقلم الإحساس والمشاعر، وكشف عنها بدقة عن طريق براعته

(١) الديوان: ٤١٥ .

في اختيار ألفاظه ليخبر المتلقي بأن هذه الخيل تقع في (جحفل)، أي: في جيشٍ عظيمٍ بلغ من عظمته أن غباره قد غشى ضوء النهار حتى ستر عن الأعين الرؤية، ليس لعيب في العين، وإنما لكثرة الغبار وارتفاعه إلى عنان السماء، وقد وظف المتنبي النكرة في كلمة (جحفل ) لتتآزر مع الدلالة المعجمية للكلمة؛ لترسم للمتلقي صورة عظمة الجيش وكثرته .

والمتنبي كعادته في التعبير عن انفعالاته وشعوره تجده يتتبع أحوال صورته التي يحاول أن يرسمها بكل أبعادها، فهو هنا يعلي من شأن خيل سيف الدولة، فيضعها أمام المتلقي في صورة تخبر عن عظمتها وكثرتها، ثم يضع إشارة تدل على صدقه؛ فيصير النهار ليلا بظلام الغبار الذي ستر الضوء عن الأبصار وشدته ، إلا أنه كان حريصا على أن يبقي الخيل في مكانة عالية شأنها شأن صاحبها، فتجده يبدع في ذلك حيث يقول: (ستر العيون) ولم يقل: أعمى العيون، وهذا الأمر يخيل لك كثرة الغبار التي نتجت عن حركة الخيل دون أن يلحق بالخيل أي عيب، فالعيون لم تتعطل بسبب ضعفها، وإنما ستر الغبار ضوء النهار عنها، لكنه لم يسلبها حركتها أو عملها فظلت تؤدي وظيفتها على الرغم مما حل بالمكان من سحب متراكمة وأمواج متلاطمة من الغبار، وتأمل قوله:( فكأنّما يُبصِرْن بالآذانِ) وما فيه من تراسل للحواس الذي جعل الأذن تعمل عمل العين، حتى إن الخيل لم يعقها عن هذه المهمة ما حل بالمكان من غبار، فإذا كان هذا الغبار لكثافته قد عطل الرؤية البصرية فإن هذه الخيل تستطيع أن تزاول مهمتها عن طريق توظيف حواسها المختلفة، فهي تسمع الأصوات بآذانها، وتفعل ما يقتضيه الصوت، حتى إنه من يراها ليحسبها أنها تبصر من خلال هذا الظلام الدامس.

<u>وتجده يمدح سيف الدولة واصفا جيشه وملقبا إياه بـ(خميس)، فيقول(١):</u>

وهي تَمْشِي مَشْيَ العَرُوسِ اخْتِيالا ... وتَثَنَّى علـى الزّمـانِ دَلالا

(١) الديوان: ٤١٢ .

في خَمِيْسٍ مِـنَ الأُسـودِ بئِيسٍ فكأنّمـا يُبصِـرْن بـالآذانِ
وظُبـاً تَعْـرِفُ الحَـرامَ مِـنَ الحِـلِّ فَقَـدْ أَفْنَـتِ الدِّمـاءَ حَـلالا

ويصف الشاعر هنا حال مدينة حماها سيف الدولة من المعتدين، فهي بعدما رأت ما فعله معها ودفاعه عنها إذا بها تتشبه بالعروس في مشيتها اختيالا وكبرياءا، وتثنى على الزمان دلالا ، ثم يصف جيش سيف الدولة بقوله:( في خَمِيْسٍ مِنَ الأُسودِ بئِسٍ)؛ فعبر عن الجيش بـ(خميس)؛ للدلالة على شدته وعظمته، وقد وظف المتنبي التنكير مع دلالة اللفظ المعجمية للكشف عن قوة هذا الجيش وعظمته، فالتنكير هنا أفاد التعظيم مع الكثرة، والمعنى المعجمي أكد وآزر هذا المعنى؛ إذ إن الخميس هو الجيش الجَرَّارُ، وقيل: الجَيْشُ الخَشِنُ، وسمي بذلك لأَنه خَمْسُ فِرَقٍ المقدمة والقلب والميمنة والميسرة والساقةُ[١]، ومعلوم أن المتنبي إذا سكن المعنى في نفسه وتمكن في شعوره ألح على بيانه، وهذا ما فعله هنا؛ حيث أثبت العظمة لجيش المتنبي، ثم أخذ طريقه للنفاذ إلى مفاصل تلك القوة و الكشف عن مواطنها لبيان وجه عظمة الجيش وقوته، فجعل أفراد الجيش وجنده أسودا على سبيل الاستعارة التصريحية، والأسود بما تمثله من شجاعة وقوة، تنقل إلى السامع مشاعر الهيبة والقوة والشجاعة ليتمثلها في ذهنه ويستشعرها كما أرادها الشاعر واستشعرها، ولا يزال المتنبي يجد في نفسه شعورا يدفعه نحو الغوص في قاع بحر معانيه مستخرجا دررا ينسج منها قلائد مدح لسيف الدولة، فيصف هذا الجيش العرمرم بـ (بئيس)، أي: شديد، كثير الشجعان، وقد بلغت قوة جنوده أنهم يفترسون النفوس والأموال، والتعبير بالمضارع في (يفترسون) يصور لك المعنى، ويدلل على أن فعلهم متجدد ومستمر، ولما جعل الجنود أسودا عبر بالافتراس لتتناسب مع فعل الأسود، ولهذه المناسبة قدم النفوس على المال؛ لأن الأسود تفترس النفوس. وقوله:

(١) ينظر لسان العرب، مادة ( خ م س) .

وظُبًا تَعْرِفُ الحَرامَ مِنَ الحِـلِّ ... فَقَدْ أَفْنَتِ الدَّماَء حَـلالا

هو امتداد نفسي لما يستشعره المتنبي من عظمة لكل ما ينتسب للمدوح، وقد صدر البيت بـ(ظبا)، وهي السيوف، وأتى بها نكرة في صورة الجمع؛ ليخرج معانيه كما استشعرها؛ حيث إنه أراد أن يرسم للمتلقي عظمة تلك السيوف ومكانتها، مشيرا إلى أنها قد بلغت مبلغا عظيما في مكانتها وقوتها، بل وحكمتها التي اكتسبتها من أصحابها، ومن كثرة ما حصدته من رقاب الأعداء، حتى صارت على دراية بالحلال والحرام، وقد وظف الشاعر التنكير ؛ ليعطي اللفظ من الطاقات ما يجعله قابلا لاحتواء كل هذه الدلالات، فأعلى من شأن هذه السيوف حتى جعل معرفة الحلال والحرام سجية متجددة لديها؛ لهذا عبر عنها بالمضارع (تعرف) بل شخص منها عن طريق الاستعارة المكنية بشرا عقلاء، يميزون بين الحلال والحرام فلا يقتلون إلا من يستحق القتل، وهذا كله كناية عن قوة سيف الدولة وشجاعته، وحكمته .

<u>ومما مدح به المتنبي سيف الدولة وجيشه قوله[1]:</u>

وقد تمنوا غداة الدرب في لجبٍ ... أن يبصروك فلما أبصروك عموا

صدمتَهم بخميس أنتَ غُرّتُه ... وَسْمهريتُه في وجهه غَمَمُ

لقد أبدع المتنبي هنا في بيان قوة جيش سيف الدولة وعظمته، فيريك أعداءه وقد تجمعوا له بجيش وصفه بأنه ( لجب)، أي: خضم عرمرم عظيم، كثرت فيه الأصوات واختلطت، حتى أغراهم ذلك أن يتمنوا رؤية سيف الدولة لينالوا منه، إلا أنهم حينما أبصروه وقع ما لم يخطر لهم ببال، فإذا بأبصارهم وقد زاغت، وبقلوبهم وقد بلغت الحناجر من شدة الخوف، فلم يستطيعوا أن ينالوا منه شيئا، و كأن هيبته خطفت أبصارهم، وشتت أفكارهم، ومن ذكاء الشاعر أنه جعل ما حل بهم وقع لهم بمجرد رؤيته

(١) الديوان: ٤٢٣ .

منفردا، لا رؤية جيشه ورجاله، وهذا أبلغ في بيان عظمته وقوته، ثم يكشف عن عامل آخر من عوامل ما نزل بهم من رهبة، فيقول:

صدمتَهم بخميس أنتَ غُرّتُه ... وَسْمهريتُه في وجهه غَمَمُ

واستعمل لفظ (صدم) ليبين لك قوة الجيشين، فالصَّدْمُ ضَرْبُ الشيء الصُّلْب بشيء مثله[1]، أي أنه أوقع بجيش الأعداء ضربة قوية، وعبر عن جيش سيف الدولة بـ (خميس) فهو الجيش العظيم الجرار، والشاعر هنا وضع جيش سيف الدولة في موازنة مع جيش أعدائه، ووظف الجانب اللغوي لإظهار مقومات التفوق وجانب التميز، فعبر عن جيش الأعداء بـ(لجب)، وعن جيش سيف الدولة بـ(خميس)، وجاء اللفظان نكرتين؛ لبيان ما امتاز به كلا الجيشين من عظمة وكثرة مهيبة، وإذا كان الغرض من تعظيم جيش سيف الدولة معروفًا، وهو تعظيم الممدوح، فلماذا عظم جيش العدو؟

من الواضح أن المتنبي عظم جيش الأعداء رغبة في تعظيم سيف الدولة نفسه؛ لأنه لما كان جيش أعدائه بهذه القوة ثم ينزل بهم ما نزل حال رؤيته، فإن ذلك يدل دلالة قطعية على ما يمتلكه هذا الممدوح من هيبة ومكانة.

ثم تجد المتنبي يختار لجيش الأعداء لفظة (لجب)، فهو مع عظمته تجد معه الصَّوْتُ والصِّياحُ والجَلَبة، أما جيش سيف الدولة (خميس) فهو مع عظمته وقوته يمتاز بالكثرة المرتبة، والتقسيم المنظم المكتمل. فتكون لفظة (الخميس) أدت دورا بارزا في بيان ما امتاز به جيش الممدوح من صفات.

وكعادة المتنبي في أنه يطيل النفس مع وصفه لكل ما يتعلق بسيف الدولة، وما ذلك إلا نتيجة إلحاح المعاني عليه وتجلجلها في صدره، فأخذ يستجيب لنداءاته الداخلية، حتى نعت الجيش بقوله: (أنت غرته)، وكأنه جعل هذا الجيش كالفرس وناسبه أن يجعل الممدوح غرة ، كناية عن موقعه المتقدم وشهرته وشرفه، وناسبه –أيضا – أن يجعل رماح الجيش كالغمم، أي: كشعر الناصية؛ للدلالة على الكثرة والغزارة، وبذلك فقد أعطى

(١) ينظر لسان العرب: مادة ( ص د م) .

المتنبي لممدوحه صورة ذات هيبة وجلال، عن طريق ما أضفاه من أوصاف على جيشه ، تلك الأوصاف التي تعمل على نقل مشاعر الهيبة والقوة والشجاعة للمتلقي كما يحسها الشاعر.

ويوظف المتنبي النكرة في تعظيم جيش سيف الدولة - أيضا - فيقول[1]:

أرادوا أن يـــديروا الـــرأي فيهـــا فصـــــبحهم بــــــرأيٍ لا يــــــدارُ
وجـــيشٍ كلمـــا حـــاروا بـــأرضٍ وأقبـــــل أقبلـــــت فيـــــه تحـــارُ

يقول الشاعر: أراد بنو كعب أن يديروا في مدينة تدمر رأيا يمتنعون به من سيف الدولة، إلا أن سيف الدولة صبحهم من الإيقاع بهم برأي يغني نفاذه عن إدارته، وتمامه عن محاولته،[2] وقد أحسن الشاعر في مدح صاحبه؛ حيث أظهر التفوق لجانبه، موظفا اللفظ والمعنى؛ فجعل رأي سيف الدولة وحده أرجح من آرائهم مجتمعة، واستعمل معهم لفظة ( الرأي) معرفة، في حين أنه استعمل مع صاحبه (رأي) نكرة، وكأنه قصد أن يجعل آراءهم ذات قدر معلوم وشأن محدد، أما رأي ممدوحه فهو رأي عظيم بلغ من عظمته أنه لا يوقف له عند حد، حتى أوقف فكرهم وعطل تدبيرهم، وأتى على ما أرادوا .

وإذا كان ما فعله قد عطل فكرهم، فإن الشاعر قد اصْطَحَبَ معه جيشا عظيما ذا مهابة، عبر عنه بصيغة النكرة بقوله: (جيش)؛ ليشير إلى تلك المهابة وهذه العظمة، فهو جيش كثير جمعه، جليل أمره، و آثر المتنبي التعبير بلفظ ( جيش) هنا؛ لأن هذا اللفظ يشير إلى معنى الثوران والغليان [3]، وكأنه لما علم بتدبيرهم ثار عليهم ثورة أتت على آخرهم، ولم تبق منهم أحدا .

(١) الديوان : ٤٠١ .

(٢) شَرْح شِعْر المُتَنبي – إبراهيم بن محمد بن زكريا الزهري، من بني سعد بن أبي وقاص، أبو القاسم ابن الإِفْلِيلي (المتوفى: ٤٤١هـ)، ٢/ ٣٠٩ دراسة وتحقيق: الدكتور مُصْطفى عليَّان، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ – ١٩٩٢ م

(٣) مقاييس اللغة مادة ( ج ي ش) .

ولما صاغ الشاعر لفظ (جيش) في صورة النكرة فتح لنفسه بابا ينطلق من خلاله متغنيا بقدر هذا الجيش وعظمته، ليتناغم مع ما شعر به من دوافع نفسية قد تغلغلت بداخله وامتزجت بعواطفه لتندفع على لسانه واصفة قوة هذا الجيش رغبة منه في الوصول بممدوحه إلى ما لا يصل إليه غيره، فأقام مقابلة بديعة بين الأعداء وجيش سيف الدولة، فالأعداء كلما فروا هربا من سيف الدولة ونزلوا بأرض واسعة حاروا فيها من شدة اتساعها وترامي أطرافها، فإذا أقبل عليهم هذا الجيش ونزل بنفس الأرض إذا بالشعور وقد تبدل والحال قد تغير ؛ ليحل بالأرض شعور الحيرة؛ فتضيق مع اتساعها من عظمة هذا الجيش وكثرة عدده، حتى صورها في صورة إنسان كاد أن يفقد عقله من عجب ما رأى، والمقصد من ذلك كله هو إصباغ الممدوح بسمت المهابة والعظمة، تلك المهابة التي تضيق بها الأرض وإن رحبت بغيره .

وقد عظم المتنبي من خيل سيف الدولة مستخدما النكرة في في قوله[1]:

فَيَوْماً بِخَيلٍ تَطرُدُ الرَّوم عنهم ... ويَوْمًا بجود تَطرُدُ الفَقْرَ والْجدِّبا

حيث قسم المتنبي الزمن عند سيف الدولة إلى يومين، يوم للحرب، ويوم للعطاء، وقوله: (يوما بخيل) كناية عن الحرب التي خاضها من أجل الدفاع عن أهل الثغور؛ ليطرد الروم عنهم، وأبو الطيب هنا يوظف أدواته الفنية؛ ليرسم للمتلقي لوحة فنية تكشف عن قوة هذا الجيش وعظمة صاحبه، فعبر بـ( خيل) نكرة؛ ليوظف تلك اللفظة في رسم صورة لسيل خضم من الخيل تموج مندفعة نحو الأعداء حتى تنزل الذل والهوان بهم دون أن يصيبها كلل أو ملل، بل هي مستمرة في مهمتها، وما ذلك إلا لعظمتها وقوتها.

وإذا كان هذا هو حال سيف الدولة في الحرب، فإن ذلك لا يثنيه عن الجود والكرم، بل إنه حريص على أن يكثر من عطاياه؛ لهذا فقد عبر الشاعر عن الجود منكرا ؛ ليدل على كثرة جوده وعظمته ، الأمر الذي مكنه أن يجعل من الجود أداة في يد سيف الدولة يطرد بها الفقر عن رعيته، ويبدل أرضهم الجدبة إلى أرض خصبة، وهذا الأمر يظهر لك دور

(١) الديوان : ٣٢٦.

استعمال النكرة في (خيل) و(جود)؛ حيث فتحت النكرة للشاعر آفاقا واسعة، استطاع أن يحلق من خلالها إلى حيث يريد في وصف الممدوح وأفعاله دون أن يجد حدا يعيقه أو قدرا يقف عنده.

وكما عظم المتنبي من خيل سيف الدولة مستخدما النكرة عظم أيضا من أسلحة جيشه فيقول(١):

يغشاهم مطر السحاب مفصلا... بمهندٍ ومثقفٍ وسنانِ

جعل المتنبي هنا جيش سيف الدولة كالسحاب الكثيف على سبيل الاستعارة، ثم جعل ما ينزله الجيش على أعدائه من وقع كالمطر الغزير المتتابع الذي يرسله السحاب على أهل الأرض فيغشاهم من كثرته، ثم يفصل لك نوع الأسلحة التي أنزل بها الجيش هذا الوابل من الوقعات على الأعداء؛ فيقول:( بمهندٍ ومثقفٍ وسنانِ)، وقد استعمل ألفاظ نكرات؛ ليدل على كثرتها وعظمتها، الأمر الذي جعلها قادرة على إحداث هذا الوابل الذي غطى الأعداء، وأتى بذلك معطوفا بالواو؛ ليدل على المغايرة والتنوع ، وهذا أوقع في بيان هول ما فعله الجيش بأعدائه.

وبهذا تجد تناغما كبيرا وانسجاما واضحا بين أدوات المتنبي الفنية التي استخدمها في بيان قوة هذا الجيش وبين ما يستشعره من عظمة وقوة لدى سيف الدولة، خصوصا وأن حياة سيف الدولة كانت تملؤها البطولات، والحرب التي كان المتنبي يشارك سيف الدولة فيها ويخرج معه في وقائعها فيشاهد انتصاراته ويستشعر لذاتها، ويرى ما ينزله بأعدائه من هزائم منكرة، ثم يتغنى بها ويعلن مجدها ويزيع سيطها كما استشعرها، وبقدر ما كان يجده في قلبه من ثورة عارمة وعاطفة صادقة نحو تلك البطولات التي عاينها، فجاءت ألفاظه معبرة أصدق تعبير عن حسه ووجدانه بما يكشف عن قدرة المتنبي في إدراك جماليات المفردة وبراعة توظيفها توظيفا سليما .

ثانيا: <u>دلالة النكرة على التعظيم في سياق مدحه كافور بقوة الجيش وكثرة العتاد.</u>

(١) الديوان : ٤١٧.

إذا كان مما عرف عن سيف الدولة أنه كان مجاهدا يناضل عن الإسلام، ويحمي ثغور المسلمين حتى كثرت وقائعه فإن كافور لم يكن كذلك، بل كانت حياته "حياة أمن وسلم، ودعة وهدوء، ليست حدوده مجاورة لحدود الروم، فيتكلف مثل ماكان سيف الدولة يتكلف من الهجوم والدفاع " (١)، فلم ير المتنبي له شجاعة ولم يعاين له جيشا ولم يقف له عند نصر، بالإضافة إلى أنه كان مبغضا له، محقرا من أمره، كل هذه الأمور سيكون لها أثرها البالغ في مدائح المتنبي لكافور عامة، ومدائحه بالقوة والشجاعة خاصة .

<u>ومما مدح به المتنبي كافور واصفا عدته في الحرب قوله(٢):</u>

وَقُدتَ إلَيْهــا كلّ أجرَدَ سَابِــحٍ يؤدّيــكَ غَضْبَاناً وَيَثْنِيــكَ رَاضِيَــا
وَمُخْتَــرَطٍ مَــاضٍ يُطيعُــكَ آمِــرا وَيَعصِــي إذا اســتَثنَيتَ أوْ صــرْتَ ناهِيَــا
وَأسْــمَرَ ذي عِشْــرِينَ تَرْضَــاه وَارِداً وَيَرْضَاكَ في إيرادِهِ الخيــلَ ساقِيَــا
كَتائِــبَ مــا انفَكّــتْ تجُــوسُ عَمــائِراً من الأرْضِ قد جاسَــتْ إلَيها فيافِيَا

ولاحظ أن المتنبي هنا أظهر مقدرة بارعة في اختيار ألفاظه، وأحسن توظيفها، فأتت في مظهر جمالي فتان، فهو يمدح كافور بالشجاعة والقوة عن طريق وصف جيشه وأسلحته، واستعمل في ذلك اللفظ النكرة الذي يظهر الصورة في مظهر العظمة، ومن ذلك قوله عن الفرس: (أجرَدَ سَابِحٍ)، وفرس أَجْرَدُ قصير الشعر ... وذلك من علامات العِتْق والكَرَم، وفرس سابِحٌ إذا كان حسنَ مَدِّ اليدين في الجَرْي، أي: سريع العدو وكأنه يسبح في جريه (٣)، وقد اجتمع الوصف، والتنكير في الدلالة على قوة هذه الخيل ومكانتها، وهذا يشعرك من خلال النظرة الأولى وكأن المتنبي قد أخلص له الحب وارتضى له المكانة، لكن إذا تأملت كيف وظف الشاعر تلك الألفاظ لتبين لك أثر ما سيطر على المتنبي من مشاعر تجاه كافور؛ حيث استطاع المتنبي بعبقريته أن يعدد من مستويات الدلالة في

(١) مع المتنبي، طه حسين ٢٤٠ ، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
(٢) الديوان : ٤٤٤ .
(٣) لسان العرب: مادة ( س ب ح) .

ألفاظه ليصبح اللفظ الواحد يحمل في ظاهره المديح وفي باطنه الهجاء، ويظهر ذلك في تلك الأبيات؛ حيث عكس المتنبي الأمور وبدل الأحوال، فأنزل الفرس منزلة جعلته هو من يتحكم في فارسه (كافور)، وتأمل قوله: (يؤدّيكَ غَضْبَاناً وَيَثْنِيكَ رَاضِيَا)، فالفرس هو المتحكم في فارسه، فيدخله غضبانا ويخرجه مسرورا بالنتيجة؛ حتى أصبح كافور عاجزا عن التحكم في عنان فرسه، وأخرج المتنبي كافور من الصورة المتحركة ليجعله مجرد مشاهد للكر والفر ، وجعل منه دمية لا تملك أمرا ولا نهيا، ثم تأمل صدر البيت: (قدت)؛ فالقَوْدُ نقيض السَّوْق يَقُودُ الدابَّة من أَمامِها ويَسُوقُها من خَلْفِها، فالقَوْدُ من أَمام والسَّوْقُ من خَلْف، قُدْتُ الفرس ، أَقُودهُ قَوْداً، أي: جَرَّه خلفه [1]، وهو هنا يسلب منه معنى الفروسية وينثر عليه من أعمال السياس والعبودية، وكأنه يعرض بأصل كافور، كما تجد أن المتنبي عمد إلى الفرس فعظم من شأنه وأعلى من صفاته، وفي المقابل أظهر عجز الفارس عن امتلاك زمام الفرس.

وعلى نفس المنهج يسير المتنبي في البيت التالي؛ فيقول :

وَمُخْتَرَطٍ مَاضٍ يُطيعُكَ آمِراً وَيَعصِي إذا استثْنَيتَ أوْ صرْتَ ناهِيَا

والمخترط هو السيف الذي سل من الغمد، وأتى به نكرة؛ ليوهم سامعه أنه سيف بلغ في قوته ومضيه مبلغا عظيما، فيخيل له أن المتنبي قصد مدح كافور، إلا أن المدقق يجد أن المتنبي سرعان ما سلب من كافور قدرته على التصرف في كل تلك الأدوات، حتى السيف، وكأن السيف بلغ مبلغا يعجز معه كافور أن يوجهه حيث شاء، ولك أن تتأمل قوله: (يطيعك آمرا)، ثم لا يلبث إلا أن يظهر النقيصة فيأتي بـ: (يعصي)، وفي هذه المقابلة ما يجعل من كافور مسلوب التصرف والإرادة، وتأمل قوله: (وَيَعصِي إذا استثْنَيتَ أوْ صرْتَ ناهِيَا)؛ حيث قدم جواب الشرط أو ما يدل على الجواب، وهو: (يعصي)؛ ليعجل بهذا الحكم ويركز عليه؛ لأنه يحمل النقيصة لكافور، وأتى به على صيغة المضارع التي تجسد لك مشهد العصيان وتدل على تجدده واستمراره ، وهذا يكشف عما يجول في نفس

(١) السابق مادة ( ق و د)

المتنبي تجاه كافور وما يحمله له من ضغينة وكره جعلته يعجل بما يظهر عجزه ويلصق به النقيصة.

ويكمل المتنبي مدحه فيقول:

وَأسْمَرَ ذي عِشرِينَ تَرْضَاه وَارِداً وَيَرْضَاكَ في إيرادِهِ الخيلَ ساقِيَا

فالأسمر هو: الرمح، وأتى به الشاعر نكرة؛ ليدل على ما تمتع به هذا الرمح من قيمة ومكانة وقدر، ثم وصفه بأنه رمح طويل بلغ في طوله عشرين قدما، لكن ما زال الشعور المسيطر على المتنبي يسيطر على توظيف ألفاظه؛ فأعلى من قدر الرمح؛ ليضع من قدر حامله، ولعله عمد إلى هذا الرمح الأسمر ليعرِّض بكافور ولونه، ثم وصفه بـ : (ذي عِشرِينَ) على سبيل المبالغة التي تستشعر فيها الذم والقدح؛ لأنها تلوح بحرص كافور على البقاء بعيدا عن عدوه في الحرب، ، " فأكثر ما يكون الرمح ثلاثة عشر ذراعاً. والمحمود ما يكون أحد عشر ذراعاً"[1] إلا أن كافور يلجأ إلى الرمح الطويل الذي يغنيه عن الاقتراب الشديد من العدو خوفا وجبنا، كما أن قوله: (ترضاه، يرضاك) جعل الرمح ندا مكافأ لكافور، وليس سلاحا له.

ومن توظيفه النكرة في مدحه كافور قوله أيضا في نفس السياق:

كَتائِبَ ما انفَكّتْ تجُوسُ عَمائِرًا من الأرْضِ قد جاسَتْ إلَيها فيافِيَا

فالكَتيبةُ القِطْعة العظيمةُ من الجَيْش، وأتى بها نكرة؛ ليزيد من عظمة ومهابة هذا الجيش، ويؤازر ذلك صيغة الجمع، وكذا الحال في كلمة (عمائر) جمع عِمَارة، وعَمارةُ وهي أَصغر من القبيلة وقيل هو الحيُّ العظيم الذي يقوم بنفسه[2] وأتى بها نكرة للتعظيم، والتهويل؛ ليدل على أن هذه القبائل التي يدكونها دكا ذات شأن عظيم ومع ذلك فإن هذا الجيش أتى على آخرها، ولاحظ كلمة ( فيافيا) التي هي المفازة التي لا ماء فيها مع

---

(1) شرح ديوان المتنبي لأبي العلاء المعري: ٢٩/٤ ، تحقيق د/ عبد المجيد دياب دارا المعارف ، ١٤١٣هـ ، ١٩٩٢

(2) لسان العرب، مادة ( ع م ر) .

الاستواء والسَّعة[١] ، فهذا الجيش من قوته لا يثنيه عن قتال أعدائه طول المسافات ، أو سعة الفلوات ، ومع ذلك فإن المتنبي قد سلط الضوء على الجيش وجعله هو المشاهد بعظمته دون كافور بخلاف ما كان يفعله مع سيف الدولة؛ إذ إنه كان حريصا كل الحرص على أن يجعل له الصدارة في كل المشاهد .

ومن مدحه لكافور قوله[٢]:

سَلَلتَ سُيوفًا عَلَّمَت كُلَّ خاطِبٍ عَلى كُلِّ عودٍ كَيفَ يَدعو وَيَخطُبُ

يمدح المتنبي كافور بعظمة سيوفه وقوتها التي كانت سببا في إخضاع رقاب كل خطيب على كل منبر له، حتى دعا له كل الخطباء على منابرهم مكرهين، وأتى بسيوف نكرة ؛ليدل على عظمة تلك السيوف وشدة بأسها، وأتى بها جمعا؛ ليدل على كثرتها.

ومع أن الشاعر قد عظم من سيوف كافور إلا أنه قطع بنصالها علاقة كلامه بالمدح؛ فجعل المعنى فيه نقيصة واضحة؛ فبدلا من أن يسلط تلك السيوف على أعداء الدين والدولة فقد سلطها على رقاب خطباء عزل؛ ليخضعوا له قهرا، لا حبا، ويدعو له رياء، لا رجاء، فهو وإن ملك أداة قوية لكنه لم يحسن استعمالها ولم يوظفها في مكانها المرجو لها، وكأن المتنبي يعرض بطيشه وسوء تصرفه وإدارته للأمور.

ومن حديثه عن كافور ومدحه الشجاعة قوله[٣]:

أبا المِسكِ أَرجو مِنكَ نَصرًا عَلى العِدا وَآمُلُ عِزًّا يَخضِبُ البيضَ بِالدَمِ

وَيَومًا يَغيظُ الحاسِدينَ وَحالَةً أُقيمُ الشَقا فيها مَقامَ التَنَعُّمِ

يخاطب المتنبي كافور طالبا منه على سبيل الرجاء أن يحقق له النصر على الأعداء حتى يظفر بالعز الذي يريده، ويخضب السيوف بدماء هؤلاء الأعداء، كما أنه يأمل أن

(١) لسان العرب / مادة ( ف ي ف ).

(٢) الديوان : ٤٦٩ .

(٣) الديوان : ٤٦١ .

يتمكن من هؤلاء الحاسدين حتى ينزل بهم ما يغيظهم، ويحول نعيمهم إلى شقاء، أو أن يصل في حربهم إلى أن يتنعم بمشقة هذه الحرب، وقد ارتكز المتنبي على النكرة في بيان مقدار مطلبه، وذلك في: ( نصرا، عزا، يوما، حالة ) وكلها نكرات جاءت للدلالة على التعظيم، فهو لا يرجو أي نصر، وإنما يرجو نصرا ذا قدر عظيم وشأن كبير، كما إنه لا يأمل أي عز، وإنما يريد عزا يجعل رقاب الأعداء مغنما للسيوف حتى تسيل دماءهم على صفائح السيوف، وفي قوله: (عزا يخضب البيض بالدم) كناية عن كثرة ما يوقعه السيف من قتلى، وفيه صورة استعارية جعلت العز إنسانا يخضب السيوف بدماء الأعداء، كما أنه يرغب في يوم شديد بأسه، عظيم أمره؛ حتى يكون سببا في إيقاع الغيظ بحاسديه، ويصل به إلى حالة من الرضا جعلته يجد في شقاء الحرب نعيما.

وإن كان ما مر في ظاهره إخلاص المديح لكافور، إلا أن الألفاظ تأبى إلا أن تنطق بدلالات غير ذلك؛ لتطلق بدلالات الهجاء التي تزاحم دلالة المدح، وتأمل كيف حول المتنبي كل هذا المديح إلى أمور لم تقع على أرض الحقيقة، وإنما هي ضرب من خيالاته وتصوراته التي ينسج وقائعها في رجاء تارة وتمن تارة أخرى، ويظهر هذا في: (أرجو، وآمل)، بل إنه في خيالاته لم يسلم كافور من الذم، حينما جعل غاية العز الذي يرجوه أن يخضب سيف كافور بدماء الأعداء، والخضاب كما هو معلوم من خصائص النساء، فهو يذمه من حيث يظن المدح.

أما قوله:

وَيَومًا يَغيظُ الحاسِدينَ وَحالَةً  أُقيمُ الشَقا فيها مَقامَ التَنَعُّمِ

أسند الغيظ لليوم على سبيل المجاز العقلي؛ لأن الغيظ متسبب عما سيقع في هذا اليوم، بل حينما أظهر شخصية حقيقية في الصورة لم تكن صورة كافور، بل اختار أن يظهر هو بشخصه، وذلك في قوله: (أُقيمُ الشَقا فيها مَقامَ التَنَعُّمِ)

ومثل ذلك قوله [1]:

(١) الديوان : ٤٤٤ .

وَما كُنتَ مِمَّن أَدرَكَ المُلكَ بِالمُنى وَلَكِن بِأَيّامٍ أَشَبنَ النَواصِيا

يمدح المتنبي كافور ويقول أنه لم يصل لما وصله إليه من حكم إلا بسعيه وجده وما خاضه من حروب شيبت من شدتها نواصي الأعداء ، وعبر عن الحروب بلفظ (أيام) لأنها تقال عند الشدة و الْأَمْرِ الْعَظِيمِ[1]، كما أن وروده نكرة جمعا دل على أن شدته لا منتهى لها، وبلغ من العظمة ما لا يوقف على قدر، وقد كنى عن هذا القدر العظيم بقوله: ( أَشَبنَ النَواصِيا)، أي: يشبن النواصي لشدتها؛ لذلك أسند إشابة النواصي إلى الأيام على سبيل المجاز العقلي، فالحقيقة أن الأيام لا تشيب أحدا، لكنه أسند الفعل لها؛ ليدل على شدة هذه الأيام وما وقع فيها.

ولكن المتنبي يأبي إلا أن يذم كافور حتى وإن ادعى أنه يبالغ في مدحه، ويظهر ذلك في أنه صرح بأن كافور لم يكن ممن يفكر في الملك، ولم يكن يخطر له ببال، وتأمل النفي الداخل على (كان) الدال على التوغل في النفي، ثم جعل وصوله للملك ليس بالحكمة، ولم يكن برضا شعبه، وإنما كان ما فعله غصبا؛ حيث أخذ الحكم بهول الحروب، لا برضا الشعوب، وهذه الفكرة أصيلة لدى المتنبي؛ لأنه لا يرى لكافور العبد الأسود الأعجمي أحقية في هذا الملك .

والملاحظ أن المتنبي في مدحه لسيف الدولة وكافور قد وصف جيشهما وعدتهما الحربية، وكان لتوظيف النكرة دور بارز في هذا الموطن، ولكن هيهات بين مدح كافور بجيشه وعدته وبين ما وصف به سيف الدولة، ويظهر ذلك الفرق في مواطن كثيرة، منها: بيان موضع كليهما من العدو ، فيقول في سيف الدولة [2]:

ضُروبٌ وَما بَينَ الحُسامَينِ ضَيِّقٌ بَصيرٌ وَما بَينَ الشُجاعَينِ مُظلِمُ

ويقول في كافور[3]:

---

(1) لسان العرب مادة ( ي و م ).

(2) الديوان : ٣٠٣

(3) الديوان : ٤٤٥

وَأسْمَرَ ذي عِشرِينَ تَرْضَاه وَارِداً وَيَرْضَاكَ في إيرادِهِ الخيلَ ساقِيَا

فسيف الدولة قريب جدا من عدوه، لا يخشاه ولا يهابه، أما كافور فقد عمد إلى رمح طويل يضمن له مسافة كبيرة بينه وبين من يقاتل.

كما أن المتنبي جعل سلاح سيف الدولة له طائعا له، وجعل سيف الدولة منه متمكنا إذ يوجه به ضربات قوية في ظرف صعب وموقف مهيب، أما سلاح كافور فيعصاه ولا يرضخ لنواهيه، وذلك في قوله:

وَمُخْتَرَطٍ مَاضٍ يُطيعُكَ آمِراً وَيَعصِي إذا استثْنَيتَ أوْ صرْتَ ناهِيَا

بل تجد هناك فرقا في الدلالة بين (ضروب) التي استعملها مع سيف الدولة وبين (مخترط) التي استعملها مع كافور، هذا الفرق يرجح كفة سيف الدولة، فمع أن كليهما نكرتان، وفيهما دلالة على التعظيم، لكن هيهات ما بين سيف عظم شأنه في قوة الضرب، وعرف أثره وقدره القاصي والداني، وبين سيف عظم شأنه في سله من غمده، دون أن يظهر له أثر ، ولم يعرف له مع صاحبه قدر.

وتأمل ما بين الجيشين من فروق، فيقول عن سيف الدولة: [1]

فَلَبَّيتَـــــهُ بِـــــكَ فـي جَحفَـــلٍ لَـهُ ضامِـــنٍ وَبِـــــهِ كافِـــــــــلِ

خَـرَجنَ مِـنَ النَقـعِ فـي عـارِضٍ وَمِـن عَـرَقِ الـرَكضِ فـي وابِـلِ

ويقول عن جيش كافور: [2]

كَتائِبَ ما انفَكّتْ تجُوسُ عَمائِرًا من الأرْضِ قد جاسَتْ إلَيها فيافِيَا

فجيش سيف الدولة (جحفل) ، أي: جيش كثير ، ولا يكون ذلك حتى يكون فيه خَيْل، أما جيش كافور فـ (كتائب)، أي: قِطْعة عظيمةُ من الجَيْش، وتأمل حضور سيف الدولة الواضح مع جحفله، واختفاء كافور التام مع كتائبه، وكأن سيف الدوله تمتع بهيبة ومكانة

(١) الديوان : ٢٧٠

(٢) الديوان : ٤٤٥

جعلته جديرا بالظهور مع جحفله، أما كافور فلم يمتلك قدرا كافيا يضمن له الظهور وسط تلك الكتائب.

كما أن توظيف النكرات في جانب جيش سيف الدولة وأدواته الحربية صب بدلالته وعظمته وهيبته على سيف الدولة، أما في جانب كافور فعمد المتنبي إلى أن يقصر دلالات العظمة على الخيل، أو الجيش، أو أدوات الحرب دون أن تمتد إلى كافور، بل أظهر كافور معها في صورة العاجز عن التحكم فيها؛ حتى أعلنت عصيانها وتمردها عليه.

بل وتأمل كيف أظهر حكمة سيف الدولة في حسن تصرفه وحرصه على قتال الأعداء والزود عن الأمة الإسلامية، وفك كرب المظلومين، وفي الجانب الآخر كيف حط من قدر كافور وأظهره في صورة السفيه الذي لا يضع الأمور في نصابها؛ فيستعمل القوة في غير محلها، ويخضع بها رقاب العزل حتى يطيعوا أمره .

**المطلب الخامس: دلالة التنكير على التعظيم بين مدائح سيف الدولة وكافور في سياق الحديث عن بعض طباعهما وصفاتهما الذاتية.**

**أولا: توظيف النكرة في مدح المتنبي لسيف الدولة بخصال وصفات فيه.**

**وظف المتنبي اللفظة النكرة في مدحه سيف الدولة بخصال وصفات متعددة ومن ذلك قوله من الطويل [1]:**

**وَفي صورَةِ الرومِيِّ ذي التاجِ ذِلَّةٌ لِأَبلَــجَ لا تيجانَ إِلّا عَمائِمُــه**

**يقلب الشاعر هنا المعاني الثائرة في قلبه، حتى فاضت على لسانه في ألفاظ ذات دلالات محكمة البناء، تظهر انعكاسا لشخصية الشاعر، وتشعرك بعظمة الممدوح ومكانته في نفسه، فهو يصف ما رسم على خيمته؛ حيث صورة ملك الروم وهو ساجد لسيف الدولة، في خضوع وتذلل ، وعبر عن سيف الدولة بكلمة (أبلج) فهذه الكلمة مع ما تحمله من معاني كثيرة كالجمال، والضياء، والوضوح[2]، وفي رواية الواحدي : (لأبلخ) [3]، بالخاء المعجمة، وهو المتكبر العظيم في نفسه[4]، فإن صياغتها في صورة النكرة أضفت عليها مزيدا من الخشوع والعظمة، وكأن اللفظ دل على الحسن بمعناه، وعلى قدر الحسن بالتنكير، فهو حسن بلغ الغاية وجاوز الحد حتى أصبح لا يوقف له على قدر .**

**ومن عبقرية الشاعر أنه وضع صورة ملك الروم في مقابل صورة سيف الدولة، فقال عن ملك الروم: (الرومي ذي التاج)، فأتى بملك الروم في صورة معلومة القدر محدودة الشأن، وقابلها بصورة سيف الدولة بلفظ: (أبلج، أو أبلخ) نكرة؛ ليفصح عما بلغته تلك العظمة وهذه المهابة، وهذا الأمر فيه ذلة عظيمة لهذا الرومي؛ لذلك تجده أتى بلفظ: (ذلة) نكرة؛ ليشعرك بقدر هذه المذلة.**

---

(1) الديوان : ٢٥٨.

(2) لسان العرب: مادة ( ب ل ج )

(3) شرح ديوان المتنبي للواحدي: ٣/ ١٠٧٦.

(4) لسان العرب مادة ( ب ل خ )

ويقول مادحا إياه ومعظما لقدر عطاياه من الكامل [١]:

وَلَهُ وإنْ وَهَبَ المُلُوكُ مَواهِبٌ  دَرُّ المُلُوكِ لدَرّها أغْبارُ.

أي: إن عطايا الملوك وإن كثرت وغزرت فهي بجوار عطاياه كالغبر الذي هو بقايا الحلب إلى الدر الذي هو أغزر اللبن[٢]، وقد وضع المتنبي عطايا الملوك جميعا في كفة، وعبر عنها بـ (وهب الملوك)، وفيها دلالة على الكثرة والعزارة؛ "لأن الممدوح إذا فاق واهباً غير مُجزل، لم يك ذلك فضلاً إنما فضله أن يفوق المُجزلين" [٣]، ثم وضع مقابل تلك العطايا عطايا سيف الدولة في كفة أخرى، وعبر عنها بـ(مواهب)؛ ليجعل كفة سيف الدولة تطيش وترجح بعطايا غيره، فعطايا الملوك مهما بلغت وعظمت فهي معلومة قدرها، أما عطايا ممدوحه فقد عجز العادون عن الوقوف على آخرها، ويئسوا عن معرفة قدرها؛ لهذا تجد كلمة: ( مواهب) أتت في محلها، وأدت دورها ببراعة، وعبرت عما بداخل الشاعر؛ حيث صاغها في صورة النكرة، وأتى بها جمعا؛ ليجتمع الأمران معا في الدلالة على عظم تلك العطايا.

وقد اتسق نظم البيت مع مراد الشاعر وما استشعره من عظمة تجاه سيف الدولة، ويظهر ذلك في مجيء البيت مصدرا بقوله:( له)، والمتنبي هنا يقدم ما هو به أعنى وأهم ليأتي نسق كلامه متوافقا مع ما يستشعره في نفسه، وتأمل استعماله (إن) الشرطية الدالة على الشك مع عظمة عطايا الملوك، وكأنه لما رأى عطايا سيف الدولة وعاينها قلت في عينه كل ما عداها وإن كثرت، ثم حذف جواب الشرط ليتناغم بدلالة الإيهام المستفادة من الحذف مع دلالة الإبهام المستفادة من التنكير في الدلالة على بيان ما اتصفت به عطايا وهبات سيف الدولة من عظمة بلغت حد الإبهام .

---

(١) الديوان : ٢٧٧ .

(٢) لسان العرب مادة: (غ ب ر )، ومادة: ( درر)

(٣) شرح المشكل من شعر المتنبي ابن سيدة: ٥٢ ، دار الكتب والوثائق القومية، تحقيق :مصطفى السقا

ويقول مادحا سيف الدولة ومعتذرا له [١]:

وَلَكِنّا نُداعِبُ مِنكَ قَرماً    تَراجَعَتِ القُرومُ لَهُ حِقاقا

فتىً لا تَسلُبُ القَتلى يَداهُ    ف وَيَسلُبُ عَفوُهُ الأَسرى الوَثاقا

وهو هنا يعتذر لسيف الدولة بسبب ما قاله له حينما أهداه فرسا وجارية، فقال له المتنبي[٢]:

وَزَنّا قيمَةَ الدَهماءِ مِنهُ    وَوَفَّينا القِيانَ بِهِ الصَداقا

أي يدعي أنه أهدى لسيف الدولة من الشعر ما يعادل قيمة الفرس التي كان أهداها له، وما يوفي صداق تلك الجارية التي وهبه إياها، إلا أنه عاد معتذرا موضحا أن ما قاله ما هو إلا ممازحة وملاعبة، ثم يذكر أن سيف الدولة سيد كل سيد ، وكعادة المتنبي أنه كلما أراد مدح سيف الدولة بصفة نظمها في صورة المقارنة مع غيره؛ ليجعل منه متقدما على كل من عداه، وتأمل قوله: ( قرما تراجعت القروم له) وما فيه من مقابلة اللفظ باللفظ والمعنى بالمعنى، فهو قروم بلغ في قوته وشدته مبلغا لا يبارى حتى ذلت له القروم مجتمعة وأصبحت أمامه صاغرة كما تصغر الحقَّة للقرم.

والمتنبي هنا وظف لفظة ( قرم ) التي بمعنى الفحل الذي يترك من الركوب والعمل ويُودَع للفِحْلة[٣]؛ للدلالة على تعظيم سيف الدولة والمبالغة في وصفه، وقد برع المتنبي في توظيف طاقات هذا اللفظ ليرسم به صورة ناصعة لمكانة سيف الدولة في نفسه، حيث عبر بـ(قرم) على سبيل الاستعارة المكنية للمبالغة، ثم أتى بها نكرة للدلالة على العظمة والهيبة، كما أنه وضع لفظ (قرم) مفردا نكرة، مقابل: (القروم) جمعا معرفة ثم يصور لك الجمع وهم يتقهقرون أمام الممدوح منفردا؛ ليكشف عن أن هيبته وعطمته بلغت حدًا لا يبارى .

---

(١) الديوان : ٢٩١ .

(٢) الديوان : ٢٩١ .

(٣) لسان العرب مادة: ( ق ر م)

ويمتد الشعور النفسي نحو ما يجده المتنبي من عظمة نحو سيف الدولة، وما تلح به شاعريته نحو إظهار عظمة هذا الممدوح؛ مما حدا به أن يسرع إلى ذكره بلفظة: (فتى) حاذفا المسند إليه؛ لسرعة الوصول إلى ذكر ما يتعلق بممدوحه، واستجابة لرغبات نفسه، ولفظة: (فتى) من الألفاظ التي ترددت كثيرًا في شعر المتنبي، حتى تجاوزت خمسا وستين مرة، ويوظفها المتنبي حسب شعوره ومراده، فأتى بها هنا نكرة؛ ليدل على أن ممدوحه بلغ مبلغا عظيما وحدا كبيرا من الفتوة والقوة التي هي من صفات مرحلة الشباب التي ألمح إليها بلفظ : (فتى)، وقد أكد ذلك بما تلاها من أوصاف اشتملت على طباق السلب المجازي في قوله: ( لا تسلب القتلى ) و: ( يسلب عفوه )؛ ليشعرك بتلك العظمة وهذا الحد الذي لا يعرف مداه، إلا أنه يظهر في أفعاله؛ حيث (لا تَسلُبُ القَتلى يَداهُ)، وهنا كناية عن الترفع عن أخذ سلب من يقتله، وفي التعبير بـ: (يداه ) مجاز مرسل، علاقته الجزئية، وهذا المجاز يتناغم مع المبالغة التي يشيدها المتنبي لهذا الفتى؛ لأن المجاز يوحي بأن سيف الدولة يترفع عن لمس هذه الأشياء بيده، ناهيك عن أخذها وامتلاكها بالكلية، ثم يشخص هذه العظمة في قوله: (ويسلب عفوه الأسرى الوثاق)، فجعل العفو إنسانا يسلب الأسرى قيودهم على سبيل الاستعارة المكنية التي تشارك السياق في الدلالة على بيان عظمة هذا الممدوح، وفي التعبير بالمضارع: ( يسلب) ما يدل على تجدد هذا الفعل واستمراره، كما أنه حذف حرف الجر: (من) قبل كلمة: (الأسرى)؛ للدلالة على سرعة السلب والتأثير الذي فعله عفوه، كل هذا يدل على أن المتنبي تسيطر عليه حالة من الإعجاب التي تدفعه لهذا البناء الفني المحكم الذي يشد بعضه بعضا؛ ليصور سيف الدولة في مكانة يعجز غيره أن يكون فيها.

ومما مدحه به مستعملا لفظة (فتى) قوله[1]:

فَتىً تَتبَعُ الأَزمانُ في الناسِ خَطوَهُ لِكُلِّ زَمانٍ في يَدَيهِ زِمامُ

(1) الديوان : ٣٩٠ .

وهنا تتدفق شاعرية المتنبي لتجعل من سيف الدولة (فتى) بلغ الغاية في صفاته حتى بلغ مبلغا استحق معه أن يكون إماما تتبعه الأزمان مع اختلافها، فما يحكم به في الناس من حسن أو إساءة لا يرده الزمن ولا يعارضه، وتأمل كيف شخص لسامعه الأزمان وصور إياها وهي تأتم بسيف الدولة وتنقاد له عن طريق الاستعارة المكنية، وكيف زاد من تدفق تلك المعاني باستعماله المضارع: (تتبع) الدال على التجدد والاستمرار؛ ليدل على أن الصورة التي يشكلها صورة ليست عارضة، وإنما هي توصيف للواقع الراهن ، والمستقبل الواقع، فكأن زمام الدهر في يده، يقوده كيف شاء، كل ذلك يأخذ بالذهن إلى القيمة المبهمة والهالة اللامحدودة التي كان مصدر إشعاعها تنكير لفظة: (فتى).

و يمدح المتنبي سيف الدولة، قائلا[1]:

وَلَمّا تَلَقّاكَ السَحابُ بِصَوبِـــــهِ تَلَقّــاهُ أَعلــى مِنــهُ كَعبــاً وَأَكــرَمُ

فَباشَـرَ وَجهـاً طالَمـا باشَـرَ القَنـا وَبَلَّ ثِياباً طالَما بَلَّهـــــا الـــدَمُ

يبالغ المتنبي هنا في مدح سيف الدولة مستعملا إبداعه الذي جعل كرم سيف الدولة أقوى من عطاء السحاب وصوبه، على الرغم من أن السحاب هو مضرب المثل في الكرم، وإيمانا من الشاعر بتلك الفكرة صاغ أفعل التفضيل في صورة النكرة: (أَعلى مِنهُ كَعباً وَأَكرَمُ ) بغية التهويل والتعظيم من هذه المنزلة التي وضع فيها الممدوح، تلك المنزلة التي لم يستشعرها في أصل الكرم ( السحاب)؛ لذا أتى به معرفا، وكأنه يشي من طرف خفي إلى أن ما يتمتع به السحاب من كرم وعطاء جعل منه مضرب المثل هو بالقدر المعروف المحدد، أما كرم سيف الدولة فقد فاق هذا الحد ولم يوقف له على قدر .

ويستمر أبو الطيب في بث ما يستشعره من عظمة لهذا الممدوح؛ ليشعرك بمدى عمق الإحساس الذي يجده في نفسه مستخرجا البعيد الغائر في ضمير نفسه، فيقول:

---

([1]) الديوان : ٣٠٤ .

(فَباشَرَ وَجهًا) عظيم القدر ، جليل الشأن، عجزت ألفاظه ومعانيه عن أن تحيط بقدره فأطلق العنان لبيانه؛ فعبر بما يشير إلى المعنى المتسع العميق، والنكرة أقدر على خط هذا من غيرها، هذا القدر من الإجلال والعظمة ليس مقتصرا على الوجه فحسب، وإنما هو منسحب على ثياب الممدوح أيضا.

ويمدح المتنبي سيف الدولة بمعاني بديعة، في قصيدة قالها له عندما عصفت الريح خيمته، فيقول[1]:

| | |
|---|---|
| وَكَيفَ تَقُومُ على راحَةٍ | كَأنّ البِحارَ لَهَا أُنْمُلُ |
| فَلَيْتَ وَقَارَكَ فَرّقْتَهُ | وَحَمّلْتَ أرضَكَ مَا تَحْمِلُ |
| فَصارَ الأنَامُ بِهِ سَادَةً | وَسُدْتَهُمُ بالّذي يَفْضُلُ |
| رَأت لَونَ نُورِكَ في لَونِهَا | كَلَونِ الغَزَالَةِ لا يُغْسَلُ |
| وَأنّ لَهَا شَرَفاً بَاذِخاً | وَأنّ الخِيَامَ بِهَا تَخجَلُ |
| فَلا تُنْكِرَنّ لَهَا صَرعَةً | فَمِن فَرَحِ النّفسِ مَا يَقتُلُ |

في هذه الأبيات يعلل الشاعر سبب سقوط الخيمة مقدما العذر لها في سقوطها، ويصدر كلامه باستفهام خرج من معناه الحقيقي إلى معنى التعجب، وهذا التعجب صدر منه إثر شعور انتابه فأراد أن يصوره بالقدر الذي استشعره، فلسيف الدولة عند المتنبي قدر لا يدانيه قدر، ولا يحيط به وصف، وقد صوره المتنبي هذا القدر في قوله :

| | |
|---|---|
| وَكَيفَ تَقُومُ على راحَةٍ | كَأنّ البِحارَ لَهَا أُنْمُلُ |

فهذا رجل بلغ من هيبته وعظمته مبلغا جعل بحار الدنيا بجوار راحته كالنملة، ولك أن تتأمل كلمة: (راحة)، وما بلغته من غاية في العظمة وعلو في القدر، وتأمل كلمة: (أنملة)

(1) الديوان : ٣٠٦ .

وما بلغته من غاية في الصغر، ومن يتأمل البحار بما فيها وكيف تناهت في الصغر أمام راحته، يظهر له القدر الذي أراد أن يصفه بيانه، وأن يفصح عنه لسانه.

وما زال المتنبي يحاول أن يبدي للخيمة أعذارا، فيرجع السبب في سقوطها إلى أنها لم تتحمل وقار سيف الدولة، هذا الوقار الذي لو وزعه على كل الأنام لكفاهم، ولبقى للخيمة ما يثبتها، وتأمل قوله: ( فَصارَ الأنَــامُ بِهِ سَـادَةً)، أي: لو وزعت وقارك على كل الأنام لكفاهم، ولأصبح كل إنسان حظى بجزء من وقارك سيدا عظيم الشأن، كبير القدر، ويكفيك الآن أن تتأمل مقدار وقار سيف الدولة عندما يخيل لك أن الآنام جميعهم صاروا سادة عظماء حال نال كل واحد منهم بجزء من حلمه ووقاره، ولتبقى له ما يسود به الناس جميعا، وقد جاءت النكرة في: (سادة) في حاق موقعها، فجعلت من ينال جزءا منه يبلغ في المجد سؤددا وفي السيادة منزلا، فما بالك وهي مجتمعة في فرد واحد .

وقوله:

وَأنّ لَهَا شَرَفـاً بَاذِخـاً ... الخِيامَ بِها تَخجَــلُ

يؤكد به الشاعر فكرته التي لا تكاد تنفك عنه في أغلب مدائحه وهي أن الممدوح يخلع صفاته على أي مكان حل به، فمن انتمى لسيف الدولة أخذ منه الرفعة والشرف والعلو، وهذا هو الحال مع تلك الخيمة التي نالها شرف بالغ المدى في العظمة والغاية في القدر حتى خجلت منها كل الخيام الأخرى ، وهو هنا يحول الأصم إلى عاقل عن طريق الاستعارة في قوله: (وَأنّ الخِيامَ بِها تَخجَــلُ) فيجعل لها عقلا تدرك من خلاله مقدار الفخر الذي آل إليه حاله وما نزل به من عزة وشرف.

ثانيا: توظيف النكرة في مدح المتنبي لكافور بخصال وصفات فيه.

يقول المتنبي مادحا كافور [1]:

فَتىً ما سَرَينا في ظُهورِ جُدودِنا ... إِلى عَصرِهِ إِلّا نُرَجّي التَلاقِيا

(1) الديوان : ٤٤٣ .

يأتي هذا البيت في سياق تفضيل كافور على غيره إذ يقول [1]:

قَواصِدَ كافورٍ تَوارِكَ غَيرِهِ        وَمَن قَصَدَ البَحرَ اِستَقَلَّ السَواقِيا
فَجاءَت بِنا إِنسانَ عَينِ زَمانِهِ        وَخَلَّت بَياضًا خَلفَها وَمَآقِيا
نَجوزَ عَلَيها المُحسِنينَ إِلى الَّذي        نَرى عِندَهُمْ إِحسانَهُ وَالأَيادِيا

فقد جعل من كافور بحرا حال كون غيره ساقية، وجعل منه سواد العين، بينما غيره بياضا لها، و جعل من غيره محسنين، إذ كان كافور صاحب الإحسان والنعم على كل هؤلاء المحسنين جميعا؛ لهذا فهو قد بلغ مبلغا بعيدا في المجد، حتى صار (فتى) عظيم الشأن لا يباريه ملك في عزته ولا في مكانته، فاستعمل لفظ: (فتى ) نكرة؛ للإشارة إلى هذا المعنى، لكن هل فتى كافور بلغ ما بلغه فتى سيف الدولة من مكانة عند المتنبي ؟

الناظر في شعر المتنبي يجد أن لفظة: (فتى) من الألفاظ التي تكررت كثيرا في شعره، إلا أن استعمالها كان ذا دلالات مختلفة؛ حيث اختلفت عطاءات اللفظة حسب الممدوح الذي شاركت في مدحه ، فتجده تارة يستعملها في أعلى درجات الثناء والمدح قاصدا ما باللفظ من معنى القوة والفتوة، مرتكزا على جانب الرفعة في معناها، وتارة يعرض بصاحبها فينزله في منزلة وضيعة، قاصدا طيش الفكر وضعف الخبرة وقلة الحكمة، وقد ظهرت تلك المفارقة في الاستعمال في حديثه عن سيف الدولة وكافور على النحو الآتي:

يقول في سيف الدولة[2] :

فَتىً لا تَسلُبُ القَتلى يَداهُ        وَيَسلُبُ عَفوُهُ الأَسرى الوَثاقا

ويقول عن كافور:

فَتىً ما سَرَينا في ظُهورِ جُدودِنا        إِلى عَصرِهِ إِلّا نُرَجّي التَلاقِيا

---

(1) السابق: ٤٤٣ .

(2) الديوان : ٢٩١ .

فقد وظف المتنبي اللفظة في الموقفين لمدح سيف الدولة وكافور، إلا أن هناك فرقا بينهما؛ ويظهر ذلك بما اقترن بهما من وصف لكل ممدوح، وبالوقوف على القيم المنسوبة نسبة صريحة للفظة: (فتى).

ومعلوم أن النكرة مبهمة القدر؛ فقد يراد بها النهاية في العظمة، كما يراد بها النهاية في الضعة، ومن يراجع حديث المتنبي عن ممدوحيه يجده في جانب سيف الدولة قد رسم هالة شعورية تشعر السامع همس اللاوعي الذي يتسرب إلى بيانه وألفاظه، فسيف الدولة فتى شجاع يقتل الأعداء، عفيف لا يسلبهم، كريم يطلق الأسرى ويعفو عنهم ولا يوثقهم، أما في جانب كافور فاكتفى بأن أطلق عليه (فتى) دون أن يشير إلى أي مكرمة من مكارمه، ولا أن يعلي له منقبة، ثم تأمل المعنى الذي امتدحه به، وكيف صاغه؟ .

أما المعنى فظاهره غلو في المدح؛ حيث إن المعنى الأول الذي تستشعره هو أن المتنبي يقول: ما زلنا ننتقل في ظهور الأباء والأجداد منذ زمن بعيد رجاء لقاءه كافور، وهذا حدا ببعض الشراح إلى قولهم: (هذا البيت لم يقل في معناه مثله؛ لأن الشاعر ادعى أنه وأن غيره لم يسروا في ظهور جدودهم إلا رغبةً في لقاء هذا الممدوح. وهذا من إفراط الغلو)[1] ، إلا أنه من يدقق النظر يجد أن المتنبي جعل غاية هذا السيَّر هو مجرد التلاقي فقط، وتأمل تعبيره بلفظة: (سرى) التي معناها: السير ليلا ، وكأنه يعرض بسواد كافور، ويؤكد ذلك ذكر سواد كافور في عدة مواضع، منها قبل هذا البيت قوله:(فجاءتْ بنا إنسانَ عينِ زمانه)، ففيه كناية عن سواد لونه، ومنه قوله بعد هذا البيت : (أبا المسكِ ذا الوجهُ الذي كنتُ تائقا )، بالإضافة إلى ما في السير ليلا من التخبط، وكأنه ما سار إلى كافور إلا متخبطا، ثم استعمال حرف الجر (إلى) فمع أنه يدل على انتهاء الغاية إلا أنه يجر الآخر وغير الآخر، خلاف (حتى) التي لا يجر بها

(1) اللامع العزيزي شرح ديوان المتنبي، : أبو العلاء أحمد بن عبد الله المعري (٣٦٣ – ٤٤٩ هـ): ١٤٦٩، تحقيق: محمد سعيد المولوي، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨ م.

إلا الآخر، فهي تعريض بالرحيل عنه، وكأنه يقول: ليس كافور هو آخر ما أرجوه، فإن لم أجد ما أطلبه عنده فسيكون الرحيل لغيره لا محالة.

ولعل حرصه على أن يقول: ( ظهور جُدودِنا ) هو رغبته في بيان أن لقاءه بكافور مرده للقدر فحسب دون أن يقحم إرادته ورغبته فيه؛ لذلك عبر بمرحلة التنقل من الأصلاب التي هي قائمة على الأقدار دون أن يكون للإنسان فيها وعي أو اختيار .

هذا كله يكشف عن أن الفتى الذي استحضره هنا يقل في منزلته عن الذي استحضره عند سيف الدولة، بل إن كلا الفتيين من واد يختلف منزعه ومراده عن الأخر، فشتان بين هذا وذاك، وما ذاك إلا للمفارقة الشعورية لدى المتنبي تجاه ممدوحيه، فهي الدافع الحقيقي لمعانيه، لهذا تجده يخرج مقالته عن سيف الدولة غناء مبهجة، تحمل رحيقا من ثنايا نفس عاشقة، وفي المقابل لا تجد في مدحه لكافور روحًا؛ لأنه لا ينبعث من أعماق الشاعر ووجدانه.

ومما امتدحه به مستعملا (فتى) قوله[1]:

يَزْحَمُ الدَّهْرَ رُكْنُها عَنْ أَذَاها ... بِفَتًى مَارِدٍ عَلَى المُرَّادِ

وأتى بالفتى هنا نكرة واقعة في سياق المدح؛ لينثر على معانيه قوة وبهاء، بما تحمله لفظة الفتى من معاني القوة والفتوة مدعومة بالتنكير الذي يشعر السامع من أول وهلة أن الممدوح بلغ مبلغا عظيما، إلا أن المتنبي بشاعريته الفذة حول العظمة المرجوة من الإبهام إلى ضعة، فجعل هذا الفتي أداة منزوعة الإرادة في يد ركن الدولة، ولم يكتف بذلك بل وصفه بـ (مارد)، أي: الرجال العاتي الشديد، وأَصله من مَرَدة الجن والشياطين[2]، فألحقه بالشيطان وما يصاحبه من صفات قبح وذم .

ويقول ـ أيضا ـ عن كافور[3]:

---

(1) الديوان : ٤٦٥ .

(2) لسان العرب، مادة: ( م ر د).

(3) الديوان : ٤٦٨ .

فَتًى يَمْلأُ الأَفْعَالَ رَأْيَاً وَحِكْمَةً ... وَبَادِرَةً أَحْيَانَ يَرْضَى وَيَغْضَب

ويمدح المتنبي كافور بكونه فتى، وأتى باللفظة نكرة للدلالة على المبالغة، ولكن إلى أي مدى بلغ فتاه هنا درجات مديحه، وهذا لا يعلم إلا بالنظر لما وسمه به وهو:

( ...يَمْلأُ الأَفْعَالَ رَأْيَاً وَحِكْمَةً ... ... وَبَادِرَةً أَحْيَانَ يَرْضَى وَيَغْضَب)

فقوله: ( يَمْلأُ الأَفْعَالَ رَأْيَاً وَحِكْمَةً) من قبيل الاستعارة التي يرى ابن جني أنها أفادت المبالغة[1]، حيث جعل من الأفعال شيئا يُملأ، وجعل من الحكمة والرأي والمبادرة مادة للملأ، وعبر بالمضارع للدلالة على أن هذل الفعل يتجدد منه حتى صار سجية فيه وطبعا يقع في جميع حالاته؛ لهذا استعمل الطباق في قوله: (يَرْضَى وَيَغْضَب )؛ ليدل على العموم والشمول، فلا يمنعه غضبه من الحكمة، ولا رضاه يلهيه عنها.

وإذا علمنا أننا أمام شاعر يمدح وهو يمقت، ويثني وهو يكره، فهناك محرك يعتمل في نفس المتنبي وراء ما يقوله من ألفاظ وعبارات في كافور، يظل يكتمه ويخفيه ولكنه يظهر من حين لأخر فيتثبت يقينا بأن النص ما زال يحمل خفايا ودلالات؛ لأن سياق القصيدة يأبى أن يسلم بإخلاص المتنبي المدح لكافور ويظهر ذلك في مطلع القصيدة وأولى سياقاتها؛ حيث استهل المتنبي قصيدته بمطلع متوتر وذلك في قوله : (أغالب) [2] و هذا الفعل يدل بمادته وصيغته على المجاذبة ، كما أن فيه إظهارًا في طالعة القصيدة لما يقاسيه من معارك نفسية وندم وتحسر على فراق سيف الدولة. مما يدل على أنه لم يكن مقصده إخلاص المدح ولا إنزال كافور مكانا ذا شأن عظيم، بل إن عطاءات القصيدة تشير إلى أن المتنبي في قصيدته هذه يعرض بكافور ويتهكم بعطاياه؛ لأنه لم يجد عنده بغيته ولم يحقق له ما يأمل، فتجد الشاعر يرصد الصراع النفسي الذي جعله يقضي زمانه في العتاب والشكوى لعدم وصوله مقصده ؛ فيقول [3]:

---

(1) شرح الديوان لابن جني :١/ ٥٧٢.

(2) الديوان : ٤٦٦ .

(3) الديوان : ٤٦٧ .

أَلا لَيتَ شِعري هَل أَقولُ قَصيدَةً فَلا أَشتَكي فيها وَلا أَتَعَتَّبُ

إذن فهو يعلنها أن قصيدته هذه لن تخلو من الشكوى والعتاب، بل من يطالع القصيدة سيجد أنها فاقت الشكوى والعتاب حتى بلغت مبلغا في الجرأة احتقارًا لكافور وانتقاصًا لشأنه، وذلك في قوله له[1]:

أَبا المِسكِ هَل في الكَأسِ فَضلٌ أَنالُهُ فَإِنّي أُغَنّي مُنذُ حينٍ وَتَشرَبُ

حيث جعل الملك ( أو الغنى) في يده كالكأس، وجعل مديحه له كالغناء الذي يطربه، وجعل نفسه بإنشاده كالمغني، وهو يشرب ولا يسقيه، وذلك بخلاف ما تقتضيه العادة والمروءة وهذا فيه توبيخ له، وقوله: "منذ حين" استبطاء لمعروفه. [2]

لهذا فإن البحث يرى أن قول المتنبي لكافور:

فتى يَمْلأُ الأَفْعَالَ رَأْياً وَحِكْمَةً ... وَبَادِرَةً أَحْيَانَ يَرْضَى وَيَغْضَب

فيه نوع من اللوم عليه قبل المدح، وتوجيه بتعديل الفعل وتلويح منه لكافور بأن يضع الأمور في مكانها الصحيح، ويؤكد ذلك مناسبة القصيدة، وهو أن كافور حمل إلى المتنبي ست مائة دينار مع علمه أن هذا ليس مراده ولا تلك غايته، وأن هذا العطاء سيغضب المتنبي ولن يرضيه؛ لأنه كان يطمع في الولاية ولا يطلب المال ، فكانت تلك القصيدة ردا على هذا الفعل، وقد أشار المازني إلى مثل ذلك؛ فيقول عن مدائح المتنبي لكافور:" أما المدح فإنا والله نراه تهكم به، ولم يثن عليه، وما قرأنا له قصيدة في كافور إلا عثرنا فيها على بيت أو أبيات تشعر بأن المتنبي كان يركبه بالدعابة ويرى نفسه أجل، وأخطر شأناً من أن يمدحه"[3] ؛ وبهذا تكون لفظة (فتى) بما اشتملت عليه من تنكير خرجت عن المعنى المتوهم من النظرة الأولى فليست هي تعظيما وإجلالا وبلوغ قدر لا منتهى له، وإنما

---

([1]) السابق : ٤٦٨ .

(٢) المآخذ على شرح ابن جني: ١٢٣ ، لابن معقل المهلّبي مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ١٤٢٢هـ .

(٣) حصاد الهشيم، إبراهيم المازني: ١٣٤،مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ١٩٢٤م.

هي تسير مع مراد الشاعر وما يجول في خاطره نحو كافور وما فعله معه ، فالمتنبي يعرض بالهجاء والتهكم فى صورة المديح فجعل كافور بعيداً عن المكارم سليلاً للضعة والخسة، حديث عهد بفكر يحتاج إلى من يوجهه إلى فعل الصواب في الرأي والحكمة، ولك أن تتأمل قول المتنبي قبيل هذا البيت وهو يقول: (فَإِنّي أُغَنّي مُنذُ حينٍ وَتَشرَبُ ) وكأنه يرسم صورة كافور في صورة الغلام الصغير الذي تغني له أمه وتهدهده كي يتناول شرابه وطعامه.

وبهذا نلاحظ أنه قد تعددت مستويات البناء الدلالي للفظة: (فتى) في مدح المتنبي لكافور، فتراه يسوقها في حديثه عنه ؛ فتظنه مادحا بها موظفا إياها في أروع الصور وعظيم الصفات، فإذا ما أدرت الكلام مع السياق وأمعنت النظر في المراد كشف لك شعره عن وجه من التهكم والهجاء .

**المبحث الثاني: دلالة التنكير على العموم بين مدح سيف الدولة وكافور، وفيه مطلبان:**

**المطلب الأول: النكرة الدالة على العموم في سياق الحديث عن الشجاعة وأدوات الحرب.**

**المطلب الثاني: النكرة الدالة على العموم في سياق الحديث عن الكرم بين المتنبي وكافور .**

**المطلب الأول: النكرة الدالة على العموم في سياق الحديث عن الشجاعة وأدوات الحرب .**

**من الأمور التي تفيدها النكرة العموم والشمول، وقد وظف المتنبي النكرة في مدائحه لسيف الدولة وكافور للدلالة على العموم والشمول وجاء ذلك في سياقات مختلفة منها**

**١. حديثه عن الشجاعة وأدوات الحرب.**

**أولا: حديثه عن سيف الدولة:**

**يقول المتنبي واصفا خيل سيف الدولة[١]:**

**أحِلَّتُها مِنْ كُلِّ طَاغٍ ثِيَابُهُ وَمَوْطِئُهَا مِنْ كُلِّ بَاغٍ مَلَاغِمُهْ [٢]**

**وكعادة المتنبي في حديثه عن الأمور التي تتعلق بسيف الدولة فإنه يعلي من شأنها ويعظم من قدرها محاولا أن يصل من خلال ما يضفيه عليها من أوصاف إلى خصائل ممدوحه، وهذا الأمر واضح جلي في هذا البيت؛ حيث جعل غطاء ظهر خيله من ثياب كل طاغية من ملوك الروم، وجعل حوافرها تطأ وجه كل باغية، وتأمل قوله: (من كل طاغ) فـ (من) هنا لبيان الجنس، فهو في معرض بيان حقيقة غطاء ظهر هذه الخيل، ثم يقول: ( كل طاغ) وأتى بـ(طاغ) نكرة؛ للدلالة على العموم والشمول، أي: أنه لم يترك طاغية من طواغيت الروم سولت له نفسه أن يتجاوز الحد إلا أتي عليه حتى سلبه ثيابه التي يتباهى بحسنها ويفتخر بجمالها، فيجعل منها غطاء لظهر خيله، وفي ذلك دلالة على أن سيف الدولة قد عم نصره وعلا شأنه وطغا سلطانه على جميع أعدائه، كما يكشف عن فرط ثقة الشاعر في إيمانه بقوة ممدوحه و كمال عدته.**

---

**(١) الديوان: ٢٥٩.**

**(٢) جِلال كل شيء غِطاؤه نحو الحَجَلة وما أَشبهها وتجليل الفرس أَن تُلْبِسه الجُلَّ (لسان العرب: مادة : جلل) المَلاغِمُ من كل شيء الفم والأَنف والأَشْداق مَلَاغِمُ: (لسان العرب: مادة ل غ م)**

ولما كان من طبيعة المتنبي أنه إذا استشعر أمرا واستقر في نفسه تتبعه وأطال فيه النفس، واستقصاه استقصاء عجيبا؛ لذلك لم يتوقف على ما وسم به جلال الخيل، بل رسم مشهدا آخر من مشاهد قوتها التي تدل على قوة صاحبها، فيقول: (وَمَوْطِئُهَا مِنْ كُلِّ بَاغٍ مَلَاغِمُهْ )؛ حيث يجعل من وجوه البغاة المفسدين موطئا لأقدام الخيل، وفي (ملاغمه) مجاز مرسل، علاقته الجزئية، فالخيل تطأ الوجه وغيره، وإنما خص الوجه لمزيد من التحقير ؛ لأن الوجه أشرف الأعضاء من حيث أنه معدن الحواس والفكر والتخيل، فإذا فعل به هذا كان أشد في الإهانة والتحقير، وتأمل قوله: ( من كل باغ ) وما أفاده التعبير بالنكرة من عموم يشعرك بأن سيف الدولة أتي على كل باغ ظالم صدر منه الفساد دون أن يستطيع واحد منهم أن ينال منه أو حتى الفرار من أمامه، وهذه الأمور التي ذكرها المتنبي كناية على أن انتصارات سيف الدولة عمت أرجاء الدنيا، وأن خيله جالت ربوع الأرض فلم تترك طاغيا تسول له نفسه بأن يتجاوز الحد إلا وجردته من ثيابه ذليلا ، ولم تترك باغيا يفسد في الأرض إلا أتت عليه وأنزلت به الهزائم المنكرة، وهذا لا يحدث "إلا بعد الإمعان في قتلهم وبلوغ الغاية من الظهور عليهم" [1]، وإن كان هذا كله أتى في سياق الحديث عن خيل سيف الدولة إلا أنه أراد كل ذلك للمدوح نفسه، إمعانا منه في وصف هيبته، وإظهارا لعظمته وبيانا لمكانته في نفسه.

ويقول المتنبي ـ أيضا ـ واصفا خيل سيف الدولة في سياق مدحه[2]:

إذا أُنْعِلْنَ في آثَارِ قَوْمٍ وَإنْ بَعُدُوا جَعَلْنَهُمُ طِرَاقَا

وَإنْ نَقَعَ الصّريخُ إلى مَكَانٍ نَصَبْنَ لَهُ مُؤلَّلَةً دِقَاقَا

(١) . شرح ديوان المتنبي، أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري البغدادي محب الدين (المتوفى: ٦١٦هـ): ٣/ ٣٣٧، تحقيق: مصطفى السقا/إبراهيم الأبياري/عبد الحفيظ شلبي، دار المعرفة – بيروت

(٢) الديوان : ٢٩٠.

يقول : إذا أنعلت خيله لقصد قوم أدركتهم حتى وطأتهم بحوافرها فصارت جلودهم ولحومهم طراقا لنعالها وإن بعد المطلوبون.

ويريد الشاعر هنا أن يجعل من مجد سيف الدولة مجدا ذا شأن عظيم، أطرافه مترامية لا يحدها مكان ، وتأمل قوله: (إذا أُنْعِلْنَ في آثَارِ قَوْمٍ )؛ حيث استعمل (إذا) الشرطية الدالة على تأكيد حدوث الفعل، وأتى بعدها الفعل (أنعلن) ماضيا، مع أن معناه الاستقبال بدلالة وقوعه بعد (إذا)؛ ليدل على تحقق حدوث الفعل، وفي التعبير بلفظ: ( آثار) ما يدل على بعد مكان المطلوبين عنه، حتى إنه لم يجد لهم إلا آثارا، وقوله: (قوم) نكرة تدل على العموم، أي أن ما ستحدثه الخيل بمن تطلبهم ليس خاصا بقوم دون غيرهم، وإنما هو أمر عام يخضع له الجميع، قاصيهم ودانيهم، قويهم وضعيفهم، وهذا يدل على سطوة هذه الخيل وتفردها وفرض سيطرتها على الجميع، ويؤكد تلك السطوة وهذا التفرد بقوله: (وإن بعدوا) تأكيدا للمعنى المستفاد من قوله: (آثَارِ قَوْمٍ)، واستعمل (إن) دون غيرها؛ للدلالة على هؤلاء الأعداء مهما بعُدوا وظنوا أنهم قد أصبحوا في مأمن من سيف الدولة وجنده، فحقيقة الأمر خلاف ذلك؛ لأنهم مهما بلغوا فهم لن يخرجوا عن مرمى الخيل ولا سطوتهم؛ لأنها خيل من طراز فريد تستطيع أن تطوي المسافات لتصل إلى غايتها دون أن يباريها في ذلك أحد، أو أن ينتقص من قوتها شيء ، بل حال وصولها إلي أعدائها تنزل بهم الهزائم المنكرة، وتطؤهم بحوافرها، وبهذا فالتعبير بالنكرة في قوله: ( قوم) جعل كل هذه المعاني التي نطق بها السياق وعبرت عنها الألفاظ قانونا عاما لا يقتصر على فئة دون غيرها، ولا جماعة دون سواهم، فكلهم سواء أمام سيف الدولة وخيله.

وما زال المتنبي يجد إلحاحا داخليا نحو إظهار ما تميزت به تلك الخيل، وما ذلك إلا لما يجده في نفسه من حب لصاحبها يلح عليه بأن يستكمل مآثرها ويتتبع فضائلها، تخليدا لمآثر صاحبها؛ فيقول:

وَإنْ نَقَعَ الصّريخُ إلى مَكَانٍ نَصَبْــنَ لَــهُ مُؤَلَّلَةً دِقَاقَــا

يريد الشاعر هنا أن يكشف عن جانب آخر من الجوانب التي ميزت تلك الخيل، فهي وإن كان لها السبق على الجميع في السرعة والتفوق في القوة، فهي –أيضا– تمتاز بصفات النجدة وغوث الملهوف، مثلها في ذلك مثل صاحبها، والعجيب هنا أن هذه الخيل خرجت عن المعهود فعله في غوث الملهوف ونجدة المستغاث، فإذا كان من عادات الكرام أن يستجيبوا لمن يستغيثون بهم، فإن هذه الخيل تستجيب لأي مستغيث حتى وإن كان يطلب الغوث من غيرها، وهذا مستفاد من قوله: ( وَإنْ نَقَعَ الصّريخُ إلى مَكَانٍ ) ، فتنكير لفظة : (مكان) فيه دلالة على العموم، أي أنها تستجيب إلى أي استغاثة يطلقها أي مستغيث، لا فرق في ذلك بين ما يوجه إليها أو ما يوجه لغيرها، وفي هذا دلالة على أنها تعودت إجابة المستغيث حتى أصبح ذلك الفعل طبعا من طباعها وملازما لها، وهذا بالطبع فيه إسقاط على صاحب الخيل، وأنه يتميز بتلك الصفات، وما كان ذلك لخيله إلا لما تحقق فيه.

كما يصف المتنبي جانبا من جوانب شجاعة سيف الدولة في حروبه ضد أعدائه؛ فيقول(١):

أَلزَمتَ نَفسَكَ شَيئاً لَيسَ يَلزَمُها ... أن لا يُوارِيَهُم أَرضٌ وَلا عَلَمُ

أَكُلَّما رُمتَ جَيشاً فَانثَنى هَرَبا ... تَصَرَّفَت بِكَ في آثارِهِ الهِمَمُ

عَلَيكَ هَزمُهُمُ في كُلِّ مُعتَرَكٍ ... وَما عَلَيكَ بِهِم عارٌ إِذا اِنهَزَموا

حيث يصور المتنبي بعض أفعال سيف الدولة، تلك الأفعال التي لا تعد من الواجبات، بل هي نافلة، إلا أن سيف الدولة حرص عليها كحرصه على الواجب، ليس من قبيل الفرض الخارجي، وإنما هو من يلزم نفسه، وفي التعبير بطباق السلب في (أَلزَمتَ ... لَيسَ يَلزَمُها) ما يدل على حرص سيف الدولة على أن يصل إلى كمال الأمور حتى إن كلف نفسه ما لا تعاب بتركه.

(١) الديوان : ٣٣١

واستعمل المتنبي المصدر المؤول المكون من الفعل المضارع المسبوق بـ(أن) في قوله: (أن لا يُوارِيَهُم)؛ ليدل على نفي هذا الفعل في الحال والاستقبال نفيا مطلقا، ففعله ليس بالفعل العارض، وفي قوله: (أَرضٌ وَلا عَلَمُ ) عموم دل على أن سيف الدولة يتتبع أعداءه في كل حدب وصوب، فلا يتركهم يختبئون في سهل ولا جبل، ويكشف الشاعر هنا عن رغبة سيف الدولة الحثيثة في استئصال جذوة الأعداء؛ فيستخدم ما يدل على الإحاطة والشمول ، وذلك في التضاد بين سهل وعلم، ثم تأمل التعبير بالنكرة في تلك اللفظتين وما نثرته على السياق من عموم دل على أن الممدوح لا يرجع عن أعدائه إلا بعد قتلهم والقضاء عليهم ، ولا يكفيه ما يكفي غيره من الظهور عليهم والفرح بفرارهم من أمامه، بل يظل متتبعهم في كل مكان يقصدونه حتى يأتي على آخرهم .

ثمَّ هو كعادته في قصائده لسيف الدولة يسهبُ في المدح ويلح على المعاني ويستقصي آثارها حتى يوطن في نفس سامعه ما يستشعره من معاني، محاولا أن يصل بممدوحه إلى حد الكمال، أو يحاول أن يبلغ الغاية، بحيث يحيط بالمعنى إحاطة لا تدع زيادة لمستزيد، أو إضافة لمن يريد ، فيقول:

أَكُلَّما رُمتَ جَيشاً فَانثَنى هَرَباً تَصَرَّفَت بِكَ في آثارِهِ الهِمَمُ

و(كلما) أداة شرط تدل على التكرار، والمتنبي يصدر بها كلامه ؛ ليدل على أن فعله متكرر مع كل مرة يلاقي فيها جيشا فيوقع به الهزيمة فيهرب من أمامه، فلا يكفيه إلا أن يتتبعه، ويقتفي آثاره؛ حتى يعمل فيه سيفه، وهذا المعنى ناسبه التعبير بلفظ: (جيشا) نكرة، أي أن هذا الفعل يتكرر حتى إنه لا يقف عند حدود جيش بعينه، وإنما هو ديدنه مع كل الجيوش مهما عظمت ومهما بلغ قدرها، وفي ذلك إشارة إلى أن سيف الدولة قهر كل جيوش أعدائه فأنزل بهم الهزائم المنكرة، بل إنه لا يكتفي بإنزال الهزائم بهم، بل يستأصل جزوتهم ويقضى على سطوتهم.

وتأمل قوله[1]:

(١) الديوان : ٢٨٨

وَإِذَا انْتَضَاكَ عَلَى الْعِدَى فِي مَعْرَكٍ ... هَلَكُوا وَضَاقَتْ كَفُّهُ بِالْقَائِمِ

فهو هنا يجعل من سيف الدولة ملاذا للخليفة يلجأ إليه في مواجهة الأعداء في كل معاركه وحروبه، وتأمل كيف صاغ كلامه ونسج معانيه؛ فصدر كلامه بـ(إذا) الدالة على اليقين؛ للدلالة على أن هذا الفعل يقع كثيرا من الخليفة؛ لهذا أتى بفعل الشرط وجوابه ماضيين؛ ليدل على تحققهما، وأتى بقوله: ( معرك) نكرة للدالة على العموم؛ ليدل على أن سيف الدولة هو الخيار الأول والأخير للخليفة في كافة معاركه للنضح عن الخلافة ضد كافة الأعداء، وبهذا فإن المتنبي يرتكز على النكرة الدالة على العموم ليضع سيف الدولة في منزلة خاصة لا يباريه فيها أحد، بل يجعله هو حامي حمى الخلافة والذائد عنها في كل أيامها ونوازلها.

ويقول مادحا سيف الدولة[1]:

ألا أيّها السّيفُ الذي لَيسَ مُغمَداً وَلا فيهِ مُرْتابٌ وَلا منْهُ عَاصِمُ

جعل المتنبي من سيف الدولة على سبيل الاستعارة التصريحية سيفا قاطعا، ودليلا على القوة، ورمزا للشجاعة، وعنوانا للفروسية؛ تعظيما له وتفخيما من أمره، فهو يصوره للسامع وكأنه قد صار فردا من أفراد السيوف تجسد للسامع، ويزيد من تفخيمه عن طريق تعريفه بالموصولية (الذي)، وقوله: ( ليس مغمدا) ترشيح للاستعارة، قصد منها تقوية التعظيم؛ حيث جعله سيفا مسلولا في وجه الأعداء لا يعرف طريقا لغمده، وقوله: (وَلا فيهِ مُرْتابٌ وَلا منْهُ عَاصِمُ) تقسيم بديع، أتى به المتنبي ليدل على أن هذه القوة التي وصف بها سيف الدولة لا يشك فيها أي أحد ، فلا تجد في عموم الخلائق من يرتاب في حقيقته، ولا يشك في قوته، كما أنك لا تجد من هذه القوة عاصما من أي نوع كان، فلا يرده جيش، ولا يمنعه عن مراده حصن، وقد استطاع أن يضمن كلامه تلك المعاني عن طريق بناء مقاصده على التنكير الذي أفاد العموم، ثم تجده يخصص هذه المعاني لسيف الدولة دون غيره، فيقدم (فيه) على مرتاب، ويقدم ( منه) على (عاصم) .

(١) الديوان : ٣٨٩.

ويرى المتنبي أن سيف الدولة من الشخصيات التي لم يسبق لها نظير في أفعاله ولا في انتصاراته، حتى إن ما يقوم به لم يعتده الناس من قبل، وتجد ذلك في قول المتنبي عما فعله سيف الدولى بأهل نزار(١):

وَمَا انْقَادَتْ لِغَيْرِكَ في زَمَانٍ ... فَتَدْرِي ما المَقَادَةُ والصَّغارُ

أي أن نزار لم تنقد لأي أحد قبل سيف الدولة في أي زمان من الأزمان الخالية، فعلى طول ما مر بها من أزمنة وتعاقبت عليها الأيام، لم يستطع أحد أن يفعل بها ما فعله سيف الدولة، وفي تنكير (زمان) ما يدل على العموم والشمول، ويكشف عن تفرد سيف الدولة بأفعال لم يستطع من سبقه من الملوك مع كثرتهم على أن يفعلوا ما فعل، فليس تفرده على أهل دهره فحسب وإنما قد عم وشمل كل أهل زمان .

ولا يجد المتنبي حدا يوقفه عما يضفيه من أوصاف على سيف الدولة؛ لأن حبه قد ملأ وجدانه وسيطر على شعوره فأطلق العنان لبيانه كي يسبح في فضاءات الشعر التي لا تعرف قيودا لمعنى ولا حدا لمبالغة، ويظهر ذلك في قوله(٢):

أخذت على الأرواح كل ثنيةٍ  من العيش تعطي من تشاء وتحرم
فلا موت إلا من سنانك يتقى  ولا رزق إلا من يمينك يقسم

وهذه المبالغة وإن كانت من باب الغلو غير المقبول، إلا أن وراءها عمقا بعيدا داخل وجدانه الذي استقر فيه الإعجاب بسيف الدولة، حتى زعم أنه أخذ على الأرواح كل طريق، فهو يعطي من شاء أن يعطيه، ويحرم من أراد أن يحرمه، كما زعم أن الموت مع اختلاف موارده إنما يجيء من سنانه، وأن الرزق يقسم من يمينه.

وقوله: (كل ثنية) تنكير أفاد العموم، ونثر على السياق نوعا من كمال السيطرة على كافة الخلائق؛ إذ إنه لم يترك أي طريق سهلا كان أم وعرا إلا وقد تملك زمامه وتحكم في أمره، ويتعمق في مبالغته وينطلق متطلعا إلى بناء عالم خاص بسيف الدولة لا

(١) الديوان : ٣٩٨.
(٢) الديوان : ٣٠٥.

ينازعه فيه أحد، فينسج المعاني الدالة على تلك المنزلة معتمدا على دلالة التنكير في قوله: ( فلا موت) ، وهنا أتى بالنكرة ليشعرك بأن كل أنواع الموت دون استثناء قد أصبحت مقصورة على سنانه، كما أتى بقوله: ( ولا رزق) أيضا نكرة؛ لتكون امتدادا لشعوره وتقصيا للمعنى الذي بدأه من سيطرة سيف الدولة على كافة الأمور ومجرياتها، فكل أنواع الرزق بشتى أصنافها موقوفة على ما يجود به يمينه، وبهذا فإن المتنبي يجول بفكره وينسج بشعره منزلة ذات أبعاد عجيبه، وصفات نادرة غريبة جعلت لسيف الدولة سطوة ومهابة على كل من عداه، في كل عصر وكل مكان.

ولما كان سيف الدولة قد كثرت مغازية وتعددت انتصاراته حتى صار النصر عنده من الأمور المعهودة التي لا تطربه فقد سجل المتنبي هذا الأمر خصوصا وأنه كان ملازما له في أغلب حروبه؛ فيقول(١):

يَعودُ مِن كُلِّ فَتحٍ غَيرَ مُفتَخِرٍ ... وَقَد أَغَذَّ إِلَيهِ غَيرَ مُحتَفِلِ

وقد آثر المتنبي التعبير بالفعل (يعود)؛ للدلالة على الكثرة بالمبنى والمعنى؛ حيث دلالة المضارع على التجدد والاستمرار، كما أن المضارع جعل المعنى حاضرا بين يدي السامع؛ ليعكس له صورة سيف الدولة مع كل عود، كما أن مادة الفعل: (ع ود) تدل – أيضا– على العود والتجدد، وعبر بقوله: (كل فتح) بصيغة النكرة الدالة على العموم ليفيد أن عدم الفخر بفتوحاته صار ديدنه في كل الفتوحات تساوى في ذلك عنده عموم أنواعها؛ وما ذلك إلا من كثرة ما حصده من انتصارات جعلت ذلك من الأمور المعهودة، وهذا الأمر ميزه عن غيره، فإذا كان غيره يفرح إذا حصد انتصارا لندرة هذا الفعل وصعوبته، فسيف الدولة يختلف عنهم فلا يفرح لكثرة ما حققه.

(١) الديوان : ٢٥٧

ولما كان سيف الدولة يمتلك تلك القوة التي أذلت جميع جيوش الأعداء، وضمنت له النصر في كل موقعة، وجعلت منه سدنة للخلافة بأثرها، فكان حقه أن يملأ الأفاق ، وأن يباري الجبال؛ لهذا يقول المتنبي(١):

إذا سارَ في مَهمَهٍ عَمَّهُ وَإن سارَ في جَبَلٍ طالَهُ

يجمع الشاعر هنا بين حالين لسيف الدولة، الأولى سيره في (مهمة)، أي: السهل، وسيره في (جبل)، وفي كلا الحالتين تظهر عناية الشاعر بإظهار قوة سيف الدولة والكشف عن عظمته؛ فهو إذا سار في الأرض السهل عمه بجنوده، وإن سار في الجبل علاه فصار فوقه، والطباق بين ( مهمة، وجبل) كشف عن مطلق ما يتمتع به الممدوح من قوة وعظمة، ولعل الشاعر خالف بين حرفي الشرط ( إن، و إذا ) ووضع كلا في موضعه، فعبر في جانب السير في السهل بـ (إذا) التي هي للأمر الغالب، وهذا يتناسب مع السير في السهل؛ لأن أغلب سير الجيوش يكون في السهول، وعبر بـ (إن) التي تكون في الأمر القليل النادر، وهذا يتناسب مع سير الجيوش في الجبال، ثم تراه يستخدم النكرة في ( مهمة)، و(جبل)؛ ليدل على أن جنوده إذا سارت في أي سهل مهما اتسع حده أو بلغ شأنه، عمه لكثرة عدد رجاله، كما أنه إذا سار في أي (جبل ) مهما بلغ أمره وعلت قمته، فهو يعلوه.

وبهذا تجد للنكرات رنينا خفيا يومىء إلى مقصود المتنبي وشعوره، وهو أن سيف الدولة يمثل الشخصية المثالية لدى المتنبي، فهو المجاهد المناضل حامي الثغور؛ لهذا كان لابد أن يعم مجده، وأن تعلو قوته على سائر القوى، وهذا كله وغيره استطاعت النكرة أن تومىء إليه.

ثانيا: حديثه عن كافور:

إذا كان سيف الدولة عند المتنبي هو النموذج المثالي للفتى العربي المجاهد الذي وقف حياته في النضال عن الإسلام، وفي حماية ثغور المسلمين من قبل الروم، حتى

(١) الديوان : ٢٩٨

كثرت مواقعه ضدهم، فإن كافور لم يكن له في تلك المثالية نصيب، ولم يكن له من حب المتنبي حظ؛ إذ إنه آثر أن يعيش في أمن وسلم، ودعة وهدوء، دون أن يتكلف مثل ما كان سيف الدولة يتكلفه، وهذا الأمر انعكس على شعر المتنبي، فلا تجد لكافور نصيبا وافرا في شعر الفروسية ولا الحروب؛ لذا فإن تتبعت النكرة الواردة في مدائحه لكافور وحديثه عن شجاعته وعظمته فستجدها في مواضع قليلة، ومن ذلك قوله [1]:

إذا أتتها الرياح النكب من بلد فما تهب بها إلا بترتيب

ولا تجاوزها شمس إذا شرقت إلا ومنه لها إذن بتغريب

أي: إنه إذا هبت الرياح غير المستوية في بلاد كافور تخلت عن طباعها فهبت مستوية مرتبة إعظاما وإجلالا لكافور، لا فرق في ذلك بين أي نوع من أنواعها، فالجميع سواء، والدليل على ذلك قوله: (من بلد)، أي: من أي بلد ومن أي جهة، فالنكرة هنا أفادت العموم، ودلت على أن هذا الأمر يستوى فيه كل أنواع الرياح التي تهب على بلاده، كما أن الشمس لا تغرب عن مملكته إلا بإذنه، وأتي بشمس نكرة للعموم، ولعل المعنى هنا محمول على المجاز ، والمقصود أنه لا يمر على مملكته أي أمر من شأنه وطبعه أن يحدث ضررا إلا غير من طبعه وعدل من نفسه إجلالا لكافور، كما أنه إذا مر على مملكته أي شيء من شأنه النفع فلا يستطيع أن يغادر البلاد إلا بإذنه.

لكن كل هذا لا يعدو شيئا إذا ما قورن بمهمات سيف الدولة التي عمت الكون انتصاراته، وعم سلطانه كل الملوك، وأصبح جيشه معدا لكل النوازل ،إلى غير ذلك من عظيم الأمور، أما كافور فجل تدبيره أصبح في ترتيب الرياح، والإذن للشمس بالغروب، بل لتعجب حينما تعيد النظر في مهمات كافور تجد المتنبي جعل سلطانه على الرياح دون الريح، ومعلوم أن الرياح مهما بلغت من قوة فهي في الأعم الأغلب تكون لطيفة خفيفة لا تحمل عواصف ولا تتسم بقوة، بخلاف الريح ، ثم تأمل البيت الذي يليه وهو يثبت أن وراء

(١) الديوان : ٤٥٠

تصرفه ظلمة مطلقة وزوال خير ، كل هذا يدل على عدم نشاط همة المتنبي في مدح كافور، ولا توقد شاعريته تجاهه.

ويقول عن كافور [١]:

سَلَلتَ سُيوفًا عَلَّمَت كُلَّ خاطِبٍ عَلى كُلِّ عودٍ كَيفَ يَدعو وَيَخطُبُ

وهذا البيت قد مر في النكرة الدالة على التعظيم، وهي (سيوفا)، حيث جاءت نكرة جمعا؛ للدلالة على عظيم قدرها، وأتى ب .( كُلَّ خاطِبٍ ، و كُلِّ عودٍ) نكرة ؛ للدلالة على العموم، أي أن كل خاطب على كل منبر أخذ يدعو باسمك، إلا أن هذا الأمر فيه من الذم أكثر مما فيه من المدح؛ لأنه دل على أن كل الخطباء على كل المنابر لم يسطع كافور أن يقنعهم بعلمه ولا شخصه ولا أفعاله، مما ألجأه إلى استعمال القوة ضد هؤلاء العزل فأخذوا يدعون له خوفا من بطش سيفه، لا حبا فيه، وهذا من الأمور غير المحمودة فعلها، فتأمل كيف نثرت النكرة أجواء كره عامة على شخصه، وكيف أظهر المتنبي جانبا من جوانب ضعفه دون تصريح بعداوة أو هجاء.

ومما جاءت فيه النكرة للعموم قوله[٢]:

وقد وصل المهر الّذي فوق فخذه -- من اسمك ما في كلّ عنق ومعصم

يريد أن المهر الذي أهداه إليه كان موسوما باسمه ليعلم أنه من خيله، وأن ذلك غير خاص بالخيل، فإن كل حيوان موسوم باسمه كذلك؛ يعني أنه يملك جميع الأحياء، فكأنهم موسومون باسمه، وإن لم يوسموا حقيقة. [٣]

(١) الديوان : ٤٦٩

(٢) الديوان : ٤٦٢

(٣) شرح ديوان المتنبي للبرقوقي، ١٤٦٢ ، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة. الطبعة الثانية ١٣٥٧هـ، ١٩٣٨م

واستعمل الشاعر النكرة في مدح كافور في قوله: (ما في كلّ عنق ومعصم)؛ للدلالة على العموم، وبيان أن مُلك كافور امتد حتى عم كل حي؛ لهذا جاءت (عنق ومعصم) دون قيد لتتناغم ودلالة العموم، إلا أن المتنبي يأبى إلا أن يوهن من البناء الذي شيده لكافور، حيث جعل عطاياه مُهْرا ولم يجعلها خيلا فتيا، ثم جعل محل اسمه فخذ الدّوابّ، وهذا استخفاف بكافور، وهذا الاستخفاف يمتد إلى العموم المستفاد من التنكير في قوله: (كل عنق ومعصم) ، وتأمل اختياره (العنق، والمعصم) وهما موضعان من مواضع الزينة في النساء، ولعل المتنبي قصدهما قصدا ليجعل سلطان كافور ممتدًا على النساء دون الرجال، وهذا يتناسب مع ذكر المُهر، فكلاهما يتصف بالضعف واللين ، إذن فكافور لا يتسلط إلا على الضعيف من الأشياء ، وبهذا يكون التعميم المستفاد من النكرة حمل في ظاهره مدحا، إلا أن باطنه بلغ الغاية في السخرية المبطنة، وحل معنى الذم والاستخفاف بكافور الذي يراه المتنبي لا يعبأ إلا بسفاسف الأمور .

ومن هنا تجد بونا شاسعا بين دلالات العموم المستفادة من النكرة في مدح المتنبي لسيف الدولة وكافور، فشتان بين قائد عمت قوته الآفاق، وسيطرت خيله على كل طاغ وباغ ، ملكت من القوة ما يجعلها تصل إلى عدوها في أي مكان، له جيش ملأ الآفاق حتى سد كل سهل وجبل، وفرض قوته في كل معترك، حتى صار هو المعد لكل نازلة وحصن لكل ثغر، وبين قائد خيله مهر، ليس لها من السلطان إلا على ضعاف الناس، وقوة سيفه لا تعم إلا العزل من الخطباء على المنابر، وبهذا فقد وظف المتنبي النكرة توظيفا عجيبا، كشف به عما جال في نفسه تجاه الممدوحين، فوضع بها كل ماحد في القدر الذي استشعره .

## المطلب الثاني

## النكرة الدالة على العموم في سياق الحديث عن الكرم بين المتنبي وكافور .

### أولا: في حديثه عن سيف الدولة:

لم يكثر المتنبي في وصف سيف الدولة بالكرم وصفه بالشجاعة والإقدام، ولعل مرجع ذلك إلى أن سيف الدولة كان يمثل حصن الإسلام والعروبة، وكان يخلص له الحب، وهذا أمر جعله ينشغل بتشيد بطولاته وانتصاراته؛ لهذا تجد جل شعره في وصف شجاعته ومعاركه الحربية، إلا أنه أظهر –أيضا– جانب الكرم، وقد نسج معانيه معتمدا على أدواته الفنية التي منها توظيف النكرة الدالة على العموم، ومن ذلك قوله [1]:

لقد جُدْتَ حتى جُدْتَ في كلّ مِلّةٍ وحتى أتاكَ الحَمدُ من كلّ مَنطِقِ

يرى المتنبي أن جود سيف الدولة ليس مقصورا على فئة أو جماعة بل عم جوده كل الأحياء حتى شمل كل ملة، وأهل كل لغة .

وقوله: (حتى جدت في كل ملة) يدل على أن جوده طبع فيه غير متملق إياه؛ لهذا فهو في جوده لا يفرق بين أتباع وأعداء فالجميع سواء، لا يفرق بين من هم على ملته وبين غيرهم، وهذا من أعلى درجات الكرم، فالعطاء فيه بغير حساب، ولا يرجى من ورائه جزاء، والتعبير بـ(حتى) الدالة على انتهاء الغاية يقوي معنى العموم المستفاد من التعبير بالنكرة في قوله: ( كل غاية).

ولما كان هذا هو فعاله وتلك هي خليقته فقد ذاع صيته، وعرف كرمه حتى أقر به وأعلنه كل صاحب منطق بأي لغة كان منطقه، وتأمل ( كل منطق) وما فيها من عموم وشمول دل على أن جوده شمل كل الأعراق وأهل كل اللغات، حتى لم يجد الناس سبيلا إلا أنهم أخذوا يلهجون بحمده و يتحدثون بالثناء عليه بكل لغة نطق بها البشر.

---

(١) الديوان: ٣٤٦.

ولما كان هذا هو حال عطاياه، فلم يستطع أحد أن يقف لجوده على حد أو أن يحيطه بوصف، وقد عبر المتنبي عن ذلك بقوله[1]:

أبدى سخاؤك عجز كل مشمر  في وصفه وأضاق ذرع الكاتم

أي أنه إذا حاول كل مجتهد وشمر كل متحدث لوصف جودك وجد نفسه أمام بحر لا يوقف له على ساحل ولا يعرف له قاع، فعجز عن الغوص والوصول إلى منتهى كرمك وعجز عن استيعاب قدر جودك.

وفي إسناد إبداء العجز للسخاء ما يشير إلى عظم هذا السخاء وكثرته، حتى جعل عجز المشمرين ظاهرا واضحا يراه القاصي والداني، دون أن ينكره أحد، وفي قوله : (كل مشمر) ما يفيد العموم والشمول، أي أن هذا السخاء عجز عن الإحاطة بوصفه أو الوفاء بحقه كل أصحاب الهمم من أصحاب القول وأهل البيان، وهذا يدل على أنه بلغ المدى في السخاء وجاوز كل حد في العطاء حتى عجزت أدوات الفصحاء وقرائح البلغاء على أن تجد لهذا الفعل وصفا .

ولاحظ أن المتنبي في شطره الثاني استعمل المعرفة في (ذرع الكاتم) مخالفا بذلك ما فعله في الشطر الأول: في قوله: (كل مشمر)، وهذا التغاير يحمل في طياته دلالة عجيبة يوميء إليها، وهو أن سخاءه قد بلغ مبلغا عظيما حتى لفت انتباه كل الواصفين، وأغرى قرائح المادحين، إلا أنهم لما حاولوا الإحاطة به وصفا وجدوا أنفسهم عاجزين، ولم يتخلف عن محاولة وصفه إلا القليلون المعدودون، بل إن شئت فقل: أناس محدودون، ومع ذلك فهم لا يطيقون كتم فضله ولا الامتناع عن وصفه، فيكون التعبير في الشطر الأول بالنكرة؛ ليدل على أن الإقدام على وصفه كان من عامة الواصفين، حتى بلغ عددهم مبلغا لا يوقف على حده ، وعبر في جانب الكاتمين لفضله بالمعرفة؛ للدلالة على أنهم عدد محدد معروف .

(١) الديوان: ٢٨٨.

ولما كان هذا هو قدر سخائه وعطائه فقد عجز عن أن يباريه في ذلك القدر وهذا الحد كل كريم جواد حتى وإن كان بحرا في عطاياه، ويظهر ذلك في قول المتنبي[1]:

يُقَصِّر عَنْ يَمينكَ كُلُّ بَحْرٍ وَعمَّا لم تُلِقْهُ ما ألاقَا

وإذا كان البحر هو مضرب المثل في العطاء والجود، إلا أنه يعجز أن يصل إلى جود سيف الدوله وعطاياه، وهذا الأمر ليس مقتصرا على بحر بعينه، ولا كريم بشخصه، وإنما عجز الوصول إلى ما يفعله سيف الدولة، إنما هو عجز عام يدخل فيه كل كريم سخاء، وكل بحر معطاء، وهذا مستفاد من التعبير بالنكرة في قوله: (كل بحر).

ومما مدح به سيف الدولة قوله[2] :

فأصبح بالْعَواصمِ مُسْتَقَرّاً وَلَيْسَ لِبَحْرِ نَائِلِهِ قَرَارُ

وَأَضْحَى ذِكْرُهُ في كُلِّ أَرْضٍ تُدَارُ عَلَى الغِنَاءِ بِهِ العُقَارُ

يقول المتنبي: إذا كان سيف الدولة قد استقر في العواصم، إلا أن جوده لا يعرف له حد وعطاياه ليس لها نهاية، فلا تستقر في مكان، ولا تقتصر على أحد بل عم كرمه وشمل كل الأرجاء، حتى أضحى ذكره في كل أرض، وقد عمد الشاعر هنا إلى النكرة فنسج عليها معانيه حتى تعبر عن مراده وتعكس ما استكن بداخله من قناعة تجاه سيف الدولة، وقد وظف النكرة للدلالة على عموم مآثره وشمول كرمه ووفرة عطاياه وذلك في قوله: ( قرار)، ثم يستخدم النكرة مرة ثانية في قوله:( في كُلِّ أَرْضٍ)؛ ليكشف عن نتائج هذا العموم من الكرم، وهو انتشار ذكره في كل مكان؛ فإذا كان جوده وصل كل أرض، وبلغ كل مكان كان ذلك سببا في أن تجد مدحه والثناء عليه على لسان كل حي في كل مكان .

وبهذا فقد وضع المتنبي سيف الدولة في منزلة من الكرم بعيدة عن كل الناس، وأحاط به هالة عظيمة من الجود عجز عن وصفها كل الفصحاء، وجعل عطاياه لا تقف عند حد، بل إنها تملأ الآفاق حتى تعم كل البشر قاطبة من كل صوب و حدب، وقد ارتكز

(١) الديوان: ٢٩٢.

(٢) الديوان: ٤٠٣.

المتنبي على أدوات فنية؛ ليرسم تلك الصورة المتكاملة التي يستشعرها ويعيشها ويؤمن بها، ومن أهم تلك الأدوات التي استخدمها التعبير بالنكرة الدالة على العموم.

**ثانيا: في حديثه عن كافور:**

إذا كان المتنبّي أحبَّ سيف الدولة، ومدحه أحسن المديح، و قال فيه أجمل القول عن قناعة تامة، فإن الأمر مختلف مع كافور، حيث لم يدخل المتنبّي عليه إلا راغبًا بالسلطة، طامعًا بالجاه، لكن كافور كان بخيلا عليه فيما رغب، وقد عرض المتنبي بهذا البخل في مدائحه لكافور، كما أنه لما لم يستشعر منه العطاء الوفير عامله بالمثل في القول؛ فلا تجد تصريحا بصفات الكرم إلا ما ندر ، وربما أومأ إلى صفة الكرم في طي حديثه دون أن يصرح، ومن ذلك قوله [1]:

كأنَّ كلَّ سؤالٍ في مَسَامِعِهِ ... قميصُ يُوسُفَ في أجفَانِ يَعْقُوبِ

يمدح المتنبي هنا كافور ويقول: إنه يطرب ويفرح بكل سؤال يلقى على مسامعه فرحة يعقوب بقميص يوسف؛ وما ذاك إلا كرما وسخاء، وقد وظف المتنبي النكرة في قوله: (كلَّ سؤالٍ)؛ ليدل على العموم، فهذا الطرب والسرور الذي يعتري كافور ليس خاصا بسؤال ولا محددا بشخص، فكرمه عم كل مسؤول وشمل كل مطلوب، حرصا منه على العطاء والبذل، إلا أن المتنبي لم يصرح بصفة الكرم واكتفى بالإيماء إليها، كما أنه اكتفي بدلالات الفرح التي تعتري كافور دون أن يصرح بأنه يسرع إلى العطايا والهبات، فقد يفرح كافور بالسؤال ولا يعطي، ثم تأمل التشبيه وما اشتمل عليه من معنى يحمل بجوار المدح قدحا؛ حيث دل على أن كافور في حالة من العمى عن العطايا، حتى يقع على مسامعه السؤال، وعادة الملوك أن يكون عطاؤهم دون سؤال، فهم يبادرون بالعطاء قبل الطلب.

ومما أومأ فيه المتنبي بكرم كافور قوله[2]:

أَبَا كُلِّ طِيبٍ لَا أَبَا الْمِسْكِ وَحْدَهُ وَكُلَّ سَحَابٍ لَا أَخَصُّ الْغَوَادِيَا

(١) الديوان: ٤٥١.

(٢) الديوان: ٤٧٩.

فقوله: (أبا كل طيب) تدل على العموم والشمول، أي أنه جمع خصال كل طيب ولم يقتصر على ما اشتهر به، وهو المسك، وقوله: ( كل سحاب ) يدل –أيضا– على العموم، أي أنه جمع في عطاءاته صفات كل سحاب دون أن يخص نوعا محددا.

وتلحظ هنا أن المتنبي يحاول أن يكشف عن طباع كافور، ثم يدعي أنه يعلى من شأنه ويرفع من قدره، وقد ظهر ذلك جليا في استعماله أسلوب القصر في قوله: ( أبا كل طيب لا أبا المسك وحده) فنفى أن اختصاصه بالمسك وحده، مع أن هذا ما اشتهر به وعرف، وأثبت له صفات كل طيب، ويكرر الأمر في الشطر الثاني بأسلوب قصر في قوله: (وكل سحاب لا أخص الغواديا)، فقوله: (لا أخص الغواديا) يقابل في الشطر الأول قوله: ( لا أبا المسك وحده )، وكأنه ينفي عنه هنا –أيضا –أمرا اشتهر به وعرف، وهو أن كرمه مخصوص بزمان معين محدد، وهو وقت الصباح؛ لأن الغوادي هي : السحاب التي تنشأ في الصباح، ويأتي بـ ( كل سحاب ) لتقابل (كل طيب)، وكلاهما يفيدان العموم، ويظهران المتنبي في صورة من يحاول تغيير ما استقر لدى الأفهام وثبت عن كافور في الأذهان.

ومما وظف فيه المتنبي النكرة مادحا كافور قوله[(١)]:

وَبَحْرٍ أبو المِسْكِ الخِضَمُّ الذي لَهُ ... على كُلِّ بَحْرٍ زَخْرَةٌ وعُبَابُ

جعل المتنبي من كرم كافور بحرا على سبيل الاستعارة التصريحية، وقوله: (الخضم) ترشيح أدى إلى تكوين صورة ممتدة عملت على تقوية المعنى المراد، وعرف كافور باسم الموصول ( الذي ) ليؤكد ويقرر معنى التعظيم ويقويه بصفة أخرى عن طريق صور متتالية تتداخل لتكون صورة كلية، فعندما جعل من المتنبي بحرا عظيما، جعل غيره من الملوك بحورا أيضا؛ ليوازن بينهما، ومن ثم يرجح كفة ممدوحه على كل من عداه، وبنى هذا المعنى وتلك الصورة على النكرة في قوله: (على كُلِّ بَحْرٍ) فقدم ممدوحه وفضله على كل ممدوح، وفصل أوجه المفاضلة في قوله: ( زَخْرَةٌ وعُبَابُ) فالزخر يدل على ارتفاع ممدوحه على كل

(١) الديوان: ٤٧٩.

الملوك، وذلك لأن مادة: ( زخر ) تدل على الارتفاع [١]، والعباب يدل على أن عطايا ممدوحه أكثر من كل ما عداه وذلك لأن مادة ( عبب) تدل على الكثرة[٢].

ومع كل ما أضفاه المتنبي هنا على كافور من عظمة فاق بها كل الملوك، إلا أنك لا تعدم من وجود نقص وجهه المتنبي لكافور ، وهذا النقص ينكشف للقارىء حينما يتأمل البيت الذي يسبق هذا البيت حيث يقول[٣]:

أَعَزُّ مَكَانٍ في الدُّنَى سَرْجُ سَابِحٍ ... وَخَيْرُ جَلِيْسٍ في الزَّمَانِ كِتَابُ

فهو يعدد أفضل الأشياء وأحسنها عنده، وتلاحظ أنه جعل أعز الأماكن عنده سرج فرس سابح، وخير جليس في الزمان هو كتاب يطالعه، وهذه الأمور ما هي إلا من مقتنيات الشاعر وممتلكاته، ثم تجده يعطف عليها (وَبَحْرٍ أبو المِسْكِ الخِضَمُّ)، وكأنه يلوح بأن كافور قيمته لا تتعدى قيمة هذه الممتلكات، وكأنه يوميء بأصل كافور، حيث الرق والعبودية، وأنه لا يعدوا كونه مملوكا، ويكون ما أثبته له من تقدم في قوله: (الذي لَهُ ... على كُلَّ بَحْرٍ زَخْرَةٌ وعُبَابُ) ما هو إلا تقدم على أمثاله من العبيد، ويؤازر هذا المعنى التعبير بقوله: ( أبو المِسْكِ)، ففيه تذكير –أيضا – بلونه الأسود، "فقد كان المتنبي يهجوا كافور الإخشيدي بكلمة: (أبا المسك) نظرا لسواده؛ لأن المسك أسود، ويرى أن اسمه كافور لا يناسبه؛ لأن الكافور أبيض ناصع؛ فهذا تحقير لكافور و تهكم سخرية[٤] .

ولا يزال المتنبي على إصراره على التقليل من شأن كافور مما جعله يصر على تأخير ذكره عن سرج الفرس، والكتاب، فهو عنده في منزلة أقل وأدنى من هذه الأشياء ، بل إنه أفرد الأمرين السابقين بأفعل تفضيل (أعز)، و( خير )، ثم أدخل ما يخص كافور تحت واحد منهما دون أن يخصه بفعل، وهذا الأمر مرده كره المتنبي لكافور، وضعته عنده، ويكشف عن إحساسه تجاهه، ومدى استصغاره له.

---

(١) مقاييس اللغة، مادة: زخ ر).

(٢) السابق، مادة: ( ع ب ب).

(٣) الديوان: ٤٧٩.

(٤) المتنبي ملئ الدنيا و شاغل الناس، محمد التونجي: ١٢١، دار عالم الكتب، ٢٠٠٨م

## الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبين وعلى آله وصحبه والتابعين

## أما بعد ...

فقد طوفت هذه الدراسة مع شعر المتنبي ملقية الضوء على توظيف النكرة وتغايير دلالتها مع تغايير الممدوح، وكان أوضح ما انتهت إليه الدراسة :

١. أبدع المتنبي في توظيف المفردة في رسم معانيه وبيان مراده، حتى بدا وكأنه معماري فذ يحسن هندسة بنائه الفني فجاءت دلالات ألفاظه السياقية كاشفة عن الحالة الشعورية التي تملكته، وطبيعة العلاقة التي كانت تربطه بكلّ من الأميرين، والأحاسيس التي سيطرت عليه مع كلّ منهما.

٢. للمفردة قدرة فائقة وطاقات متعددة يستطيع المبدع أن يوظفها في تصوير المشاعر والمشاهد المختلفة ، وأن يكشف بها عن الجانب النفسي لديه .

٣. كشف البحث عن براعة المتنبي في معرفة أقدار المعاني، وقدرته على الموازنة بينها وبين أقدار ممدوحيه، فجاءت ألفاظه ذات مستويات دلالية متفاوتة وأعطى لكل ممدوح قدرا من المعاني تتوافق مع ما يستشعره من مكانة نحو ممدوحه .

٤. تعددت مستويات البناء الدلالي في شعر المتنبي حيث استطاع أن يشحن ألفاظه بمعاني المدح والهجاء في وقت واحد .

٥. وظف المتنبي النكرة توظيفا دقيقا استطاع من خلاله الوصول إلى أغراضه ورسم من خلالها أبعاده النفسية.

٦. كشف البحث عن أن العامل النفسي لدى المبدع هو المتحكم في المستوى الدلالي لألفاظه، فكلما استقر المعنى في نفسه وعظم كلما شحن ألفاظه بطاقات دلالية تؤازر المعنى وتقويه.

٧. أكثر المتنبي عند بيان فضائل ممدوحه من استخدام الموازنة بين صدر وعجز معظم الأبيات؛ ليظهر ممدوحه في جانب القوة والأخر في جانب الضعف، وقد جاءت موازناته التركيبية ذات إيقاع قوي فأسهمت في خلق حماسة في النص، وهذا يبدو بوضوح في مدحه سيف الدولة الحمداني، واستعان على ذلك بأدوات فنية منها النكرة التي وظفها بما تحمله من انفتاح في الدلالة لتمثل جانب ممدوحه، ثم يضع في مقابلها المعرفة ذات الدلالات المحددة التي تأتي في جانب الآخر .

٨. أظهر البحث حرص المتنبي على استقصاء ما استقر في نفسه من معنى ليصل بممدوحه إلى حد الكمال، مرتكزا على أدوات فنية كان أظهرها توظيف النكرة التي مكنته من المبالغة في معانية والإحاطة بها إحاطة لا تدع زيادة لمستزيد.

٩. أبدع المتنبي في المزج بين الطبيعة بمختلف معطياتها ودلالات التنكير من خلال مدائحه لسيف الدولة وكافور ، فاستطاع توظيف اللفظة الواحدة في دلالات متباينة لتؤدي وظائف مختلفة بدقة متناهية .

١٠. جاءت الكلمة بشكل عام ، والنكرة بشكل خاص في شعر المتنبي مختارة بدقة وعناية تدل على ما يتمتع به المتنبي من براعة فائقة في امتلاك زمام اللغة والعلم

بدقائق أسرارها .

١١. استطاع المتنبي أن يجعل من اللفظة النكرة مصدر إشعاع للمعاني والدلالات، حتى لتجد من الكلمة الواحدة نبعا فياضا بالظلال والإيحاءات ، فحملت مشاعر قائلها وعبرت عما يدور بوجدانه.

١٢. استطاع المتنبي أن يقف على أغوار الألفاظ ويستعملها من كل منظور وبكل مدلول، موظفا ما يريد من معنى فيما يناسبه من موقف، وساعده في ذلك سعة اطلاعة واتساع ثقافته.

١٣. لم يقتصر المتنبي في مدائحه على شخص من يمدحه لكن امتد مديحه لكل ما يمتلكه فألبسه ثوب العظمة والبهاء ملوحا بأنه استمد تلك العظمة من صاحبه، وكان لاستخدامه اللفظ النكرة حضور كبير في هذا الجانب.

١٤. كشفت الدراسة أن للمفردة أهمية في العملية الإبداعية، وأثرا واضحا في توصيل الصورة الفنية إلى الذهن كما تولدت في نفس مبدعها . فهي تختزن المعاني الكثيرة، وتوظفها للكشف عن الظلال النفسية.

١٥. جاءت معاني المدح عند المتنبي غزيرة قوية ، فعمد إلى جعل ممدوحه كائنا مثاليا فوق البشرية؛ يصفه بصفات الكمال من كرم وشجاعة، وذكاء، وعلم...، وقد سخر لذلك طاقات اللغة المختلفة التي منها التنكير .

## المراجع والمصادر


| |
|---|
| الأعمال النثرية الكاملة، على الجارم، دار الشروق، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ، ١٩٨٩م. |
| الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني( ٧٣٩ هـ)، دراسة وتحقيق:محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل – بيروت، الطبعة الثالثة. |
| البرهان في علوم القرآن، محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي أبو عبد الله (المتوفى:٧٩٤ هـ) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، ١٣٩١هـ ، بيروت. |
| حاشية الدسوقي على مختصر المعاني لسعد الدين التفتازاني (المتوفى: ٧٩٢ هـ)، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت. |
| حصاد الهشيم، إبراهيم المازني ،مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ١٩٢٤م. |
| خصائص التراكيب، د/ محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، الطبعة السابعة، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م . |
| دلائل الإعجاز في علم المعاني الشيخ عبد القاهر الجرجاني (المتوفى: ٤٧١هـ): تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة ، الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م |
| ديوان المتنبي، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م. |
| ديوان طرفة بن العبد: لطَرَفَة بن العَبْد بن سفيان بن سعد البكري الشاعر الجاهلي (المتوفى: ٥٦٤ م) تحقيق، مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٢ م |
| رسالة في قلب كافوريات شرح حسام زادة الرومي–ابن الحسام، تحقيق محمد يوسف نجم ، دار الأمانة، ١٩٧٢. |
| شرح ديوان المتنبي للبرقوقي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، الطبعة الثانية |

| |
|---|
| ١٣٥٧هـ، ١٩٣٨م |
| شرح ديوان المتنبي لأبي العلاء المعري ، تحقيق د/ عبد المجيد دياب دارا المعارف، ١٤١٣هـ ، ١٩٩٢ |
| شرح الديوان لابن جني، تحقيق د / رضا رجب، دار الينابيع، دمشق |
| شرح المشكل من شعر المتنبي ابن سيدة، دار الكتب والوثائق القومية، تحقيق :مصطفى السقا. |
| شرح ديوان المتنبي للواحدي ، ضبطه وشرحه، د ياسين الأيوبي، د قصي الحسيني، دار الرائد العربي،بيروت لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ ، ١٩٩٩م . |
| شرح ديوان المتنبي، أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري البغدادي محب الدين (المتوفى: ٦١٦هـ)، تحقيق: مصطفى السقا/إبراهيم الأبياري/عبد الحفيظ شلبي، دار المعرفة – بيروت |
| شَرْح شِعْر المُتَنبي – إبراهيم بن محمد بن زكريا الزهري، من بني سعد بن أبي وقاص، أبو القاسم ابن الإفْلِيلي (المتوفى: ٤٤١هـ)، دراسة وتحقيق: الدكتور مُصْطفى عليَّان، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ – ١٩٩٢ م |
| الصبح المنبي عن حيثية المتنبي، يوسف البديعي ، تحقيق السقا، ومحمد شتا، دار المعارف/ ١٩٦٣م |
| الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة العلويّ (المتوفى: ٧٤٥هـ)، المكتبة العنصرية – بيروت الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ |
| اللامع العزيزي شرح ديوان المتنبي، : أبو العلاء أحمد بن عبد الله المعري (٣٦٣ – ٤٤٩ هـ)، تحقيق: محمد سعيد المولوي، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨ م. |
| لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري دار صادر – بيروت |

| |
|---|
| الطبعة الأولى. |
| المآخذ على شرح ابن جني، لابن معقل المهلّبي مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض. |
| المتنبي ملئ الدنيا و شاغل الناس، محمد التونجي، دار عالم الكتب، ٢٠٠٨م |
| مع المتنبي، طه حسين، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة |
| معجم مقاييس اللغة،أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م. |
| النهاية في غريب الحديث والأثر، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري:، تحقيق : طاهر أحمد الزاوى - محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية - بيروت ، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م |
| همع الهوامع في شرح جمع الجوامع: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة التوفيقية - مصر. |
| الوسيلة الأدبية للعلوم العربية ، حسن المرصفي، الطبعة الأولى، المطبعة الملكية ، ١٢٩٢هـ |